جامــعة بــجــاية

كــلية الآداب واللــغات

قســم اللــغة والأدب الــعربي

عنوان المذكرة:

الهوية و الصراع اللغوي في رواية "سيّدة المقام" "لواسيني الأعرج"

مذكرة مقدّمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب جزائري

إعداد الطالبتين:

- نصيرة أوكعور
- حميدة رحموني

إشراف الأستاذ:

- موسى عالم

السنة الجامعية: 2014 - 2015

بسم الله الرحمن الرحيم

"وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت و إليه أنوب"

سورة هود: الآية 88.

شكر و امتنان:

نتقدم بجزيل الشكر و الامتنان إلى أستاذنا الفاضل " عالم موسى " لقبوله الإشراف على هذه المذكرة ، و إخراجها للوجود . نشكره على هامش الحرية التي منحنا إياها أثناء البحث ، و أيضا على تواضعه الذي عز نظيره و رفعة ذوقه التي استوعبت مشاكسة أسئلتنا و فوضى كلماتنا .

جزاه الله عنا كل خير.

نشكر كل من ساعدنا من قريب أو بعيد

نشكر كل من العائلتين أوكعور و رحموني

نشكر كل الأقارب و الأصدقاء .

إهـــــداء

أهدي هذا البحث المتواضع إلى كل من

زوجي " عبد الرحيم " الذي كان نعم الزوج و الصديق

لك هذا الجهد المتواضع وفاء و إخلاصا و تقديرا

إلى أبي و أمي اللذان سهرا على تربيتي و تعليمي

إلى أسرة زوجي التي وفرت لي الجو الملائم للدراسة

و إلى كل أفراد عائلة أبربور و أوكعور .

نصيرة

مـــقـدمـــــــة

مقدمة:

تناولنا في دراستنا هذه موضوع الهوية والصراع اللغوي في رواية "سيدة المقام " "لواسيني الأعرج". الذي نعتبره موضوعا يستحق البحث فيه، وذلك لاحتوائه على عناصر متعلقة بالواقع كالهوية و الإيديولوجيا، وعناصر لغوية متعلقة بالمجال الأدبي بصفة عامة، والمجال الروائي بصفة خاصة. ويتضمن المجال الأخير ظواهر لغوية حديثة ضمّنتها الرواية الجزائرية المعاصرة من أجل التعبير عن الواقع المعاش في الجزائر خلال فترة الإرهاب (في فترة التسعينات)، وأوضاع الشعب المزرية جراء النظام السياسي المتبع والذي يتصف بالعقم. فشغلت تفكيرنا الأسباب التي دفعت بالمثقف الجزائري إلى الكتابة عن العشرية السوداء بلغة روائية موحية بعيدة عن التقريرية.

وانطلاقا مما سلف، نطر السؤال : كيف جسد "واسيني الأعرج" الصراع على المستوى اللغوي في روايته ؟ وهل نجح حقا في إيصال رسالته الإيديولوجية عبر لغة الخطاب الروائي ؟، وكيف رسم لنا الكاتب موضوع الهوية والصراع الإيديولوجي في الرواية ؟.

يرجع السبب وراء اختيارنا لهذا الموضوع إلى إعجابنا الكبير بالرواية، وبكاتبها المعروف "واسيني الأعرج" لأنه يعتبر بالنسبة لنا من رواد الرواية الجزائرية الحديثة، كما أنه استعمل لغة قريبة إلى القارئ وسهلة الفهم، وذلك لدخول اللغة العامية ضمن اللغة الفصحى في الرواية. فأردنا اكتشاف محتوى الرواية وما تتناوله عن العشرية السوداء بلغة وأسلوب مختلف عن أعمال أخرى للكاتب. كما دفعنا شغف كبير لاكتشاف ما تحمله الرواية داخل أسطرها لأن العنوان المتمثل في "سيدة المقام" (مراثي الجمعة الحزينة) شوقنا لمعرفة مضمون الرواية. كما أعجبنا فيها جرأتها الكبيرة على اقتحام النظام السياسي السائد في تلك الفترة.

ومن أجل الوصول إلى تحقيق رغبتنا في الدراسة ارتأينا أن نقسم بحثنا هذا إلى مدخل وثلاثة فصول وخاتمة.

حمل المدخل عنوان تحديد المصطلحات، التي قدمنا فيه تعريفا للهوية واللغة، كما قدمنا عالم الرواية وذلك بذكر أهم الشخصيات الواردة والأحداث المهمة وتحدثنا عن زمن ومكان الرواية.

أما الفصل الأول فعنوناه ب(الهوية والتفاعل الثقافي في لغة الرواية) والذي قسّمناه إلى مبحثين، ويحتوي المبحث الأول المعنون بمحددات الانتماء الثقافي في الرواية على أربعة عناوين فرعية واردة كالتالي : الايدولوجيا وعلاقتها بالهوية، دور الانتماء الجغرافي في تحقيق الهوية، الحب ومدى وقعه في تحقيق معنى الوجود، وأخيرا البعد الإنساني ومساهمته في تحديد الانتماء الثقافي للكاتب.

أما المبحث الثاني فتناولنا فيه معالم الاستلاب ونفي الهوية. كما نجده ينقسم إلى أربعة عناوين فرعية وهي : الضغوط الاقتصادية، رقابة السلطة وأثرها السلبي على المواطن، سلبية الأفكار تقضي على المجتمع وتؤثر في الدين، وأخيرا تحميل نفسية المواطن بالمادية القاتلة (التشيء).

حمل الفصل الثاني عنوان التعددية اللغوية ودلالات الصراع في الرواية، نجد هذا الفصل ينقسم بدوره إلى مبحثين وكل مبحث منقسم إلى ثلاث عناصر. يحمل المبحث الأول عنوان اللغة الآمرة وفيه ثلاث عناصر هي السلطة الدينية، السياسية، الاجتماعية. أما المبحث الثاني فعنوانه هو لغة المهمشين ووردة فيه ثلاث عناصر هي المثقف والسلطة، لغة التمرد، المعارضة السياسية.

وآخر فصل عنوناه بتأصيل الهوية فذكرنا فيه آليات (استراتيجيات) تشكيل الهوية في الرواية والمتمثلة في استراتيجية الانفتاح (البعد التناصي)، عنف اللغة، نقد محرم، التهجين، التعدد الصوتي.

في الأخير ختمنا البحث بخاتمة استنتاجية، تتضمن أهم ما توصلنا إليه من أجوبة عن مجموعة التساؤلات التي طرحنها في بداية بحثنا.

وفيما يخص المنهج الذي اتبعناه في دراستنا فهو المنهج التحليلي النقدي، الذي قمنا فيه بتحليل لغة الرواية واكتشاف دلالاتها، كما تخلله الجانب النقدي الذي يعطي لبحثنا الموضوعية المطلوبة في أي بحث أكاديمي. لكي نتوصل إلى اكتشاف مضمون الرواية الذي بني على الصراع السياسية خلال فترة ما بعد الاستقلال للجزائر، كما يبيّن لنا التشكيلات الاجتماعية التي شاركت في بناء العمل الروائي.

تعرضنا خلال فترة البحث إلى جملة من العوائق والصعوبات، أهمها عدم توفر دراسات مشابهة لموضوعنا، كما صعب علينا استيعاب ما جاء في الرواية وما هي أهم المراجع التي تساعدنا في دراستنا. إلى جانب قلة الوقت المتاح لاستكمال هذه الدراسة إضافة إلى إصابة بالمرض الذي أخذ من وقتا الثمين.

وفي الأخير نتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذنا المشرف " عالم موسى " الذي تحملنا طيلة السنة الدراسية، وساعدنا بتقديم النصائح القيمة والتوجيهات الكثيرة، التي استفدنا منها والتي أنارت لنا الدرب لإنهاء هذا البحث، كما نشكره على تفهمه للظروف التي مررنا بها.

مـدخـل: تحـديد المـصطلحات

مدخل: تحديد المصطلحات.

1)_ تعريف الهوية:

لغة: الهوية هي حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية، وذلك منسوب إلى (هو)، نقول بطاقة الهوية أو تذكرة الهوية". [1]

اصطلاحا: "إن هويتك، بكل بساطة، هي ماهيتك". [2]

لكل شخص وله هويته ولهذه الأخيرة مظهران أساسيان هما: أولهما اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس، وثانيهما ذلك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيدا وعمقا، الذي يشكل في الحقيقة ماهية المرء، والذي لا نملك كلمة دقيقة تصفه. فالروح، بالنسبة إلى العديد من الناس، مثقلة بدلالات دينية تصرف الانتباه عن معناها الجوهري". [3]

الهوية: " بطاقة هوية أو الشهرة: الاسم ومكان وتاريخ الولادة وصورة وتعداد بعض الصفات الجنسية وتوقيع وأحيانا بصمة الشخص".

---

[1]– المنجد الأبجدي: دار المشرق بيروت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط7، 1989، مادة: هو.

[2]– جون جوزيف: اللغة والهوية(قومية–إثنية–دينية)، تر:عبد النور خراقي، علم المعرفة، الكويت، (د–ط)، 2007، ص4.

[3]– المرجع نفسه ص5.

" هويتي هي ما يجعلني غير متماثل مع أي شخص أخر". [1]

انطلاقا من التعريفات التي وجدناها في مجمل بحثنا عن ماهية الهوية، نصل إلى أنها عبارة عن صورة فوتوغرافية تبين شخصية الإنسان وتميزه عن باقي الأشخاص، وهذا ما نجده في رواية "سيدة المقام"[2] "لواسيني الأعرج" التي نحن بصدد دراستها، حيث أعطى لنا الكاتب نموذجا عن الهوية الجزائرية في فترة معينة، وهي فترة التسعينات(العشرية السوداء) التي سيطر فيها الإرهاب على البلاد. فتعتبر الهوية بذلك موضوعا خاصا، ينطلق منها كل فنان لتفسير معظم أعماله، فعند قراءة أي عمل أدبي يتجلى لنا معرفة هوية ذلك المبدع .

2)- تعريف اللغة:

اللغة: "اللغة، هي مفرد جمعه لغى ولغات ولغوت (لغو): الكلام المصطلح عليه بين كل قوم، أمّا "علم اللغة " فهو معرفة أوضاع المفردات، وقد يطلق "علم اللغة "

[1]- أمين معلوف: الهويات القاتلة (قراءات في الانتماء والعولمة)، تر: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، (ط-1)، دمشق، سوريا، 1999، ص4.

[2]-واسيني الأعرج: سيدة المقام، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، (ط-1)، 2001.

واسيني من مواليد 1954 بقرية سيدي بوجنان، ولاية تلمسان. جامعي وروائي. يشغل منصب أستاذ كرسي بجامعة الجزائر المركزية والسور بون الجديدة. يعتبر أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي، تنتمي أعماله الروائية إلى المدرسة التجريبية ، ومن أهم أثاره: وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر، ما تبقى من سيرة لخضر حمروش، مصرع أحلام مريم الوديعة.

على جميع أقسام العلوم العربية، " كتب اللغة " هي المعاجم أي ما يعرفونه بالقواميس " أهل اللغة" هم العاملون به" [1].

اصطلاحا: "اللغة هي التي يتخذها المرء للتعبير عما يعيش في نفسه من إحساسات وأفكار، وهي وسيلة لاتصال المرء بغيره" [2].

يعرف جون ديوي* اللغة: "بأنها وسيلة اتصال بين أفراد جماعة، تؤلف بينهم على صعيد واحد" [3].

كما يعرف "تشومسكي"* اللغة على أنها: "مرآة الفكر" [4]. أي هي وسيلة تعكس لمستخدميها كل الأفكار والرؤى التي تجول في فكر العالم أو الكاتب.

الناحية المهمة في لغة روايتنا هذه "سيدة المقام"، ليست فقط مطابقة الكلمات المنطوقة والمكتوبة للصور والأفكار المعبرة عنها. ولكن ما يهم هو الأثر الذي تحدثه في نفسية

---

[1]– المنجد الأبجدي: المادة :لغ .

[2]– جودت الركيبي: طرق تدريس اللغة العربية، دار الوعي، رويبة، الجزائر،(ط–13)، 2012،ص9.

[3]– راتب قاسم عاشور: أساليب تدريس اللغة العربية بين النظرية والتطبيق، دار المسيرة، عمان، الأردن،(ط–1)، 2003، ص20.

*جون ديوي:(1859–1952)، ولد بمدينة برلنجتون في ولاية فيرمونت في الو_م_أ، هو مرب وفيلسوف وعالم نفس أمريكي وزعيم من زعماء الفلسفة البراغماتية، ويعتبر من أوائل المؤسسين لها. درس في كل من جامعة فيرمونت وجامعة شيكاجو، عين فيها رئيسا لقسم الفلسفة وعلم النفس والتربية ومن أهم أثاره: كتاب "كيف نفكر وكيف نحل المشاكل".

[4]– المرجع نفسه : ص21.

* أفراد نعوم تشومسكي: من مواليد 7 ديسمبر1928، (فيلادلفيا بنسلفانيا)، أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي، إضافة إلى أنه عالم إدراكي وعالم بالمنطق، ومؤرخ وناقد وناشط سياسي، وأستاذ لسانيات. كتب عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام وهو مؤلف لأكثر من 100كتاب، يوصف بأب علم اللسانيات الحديث.

السامع والقارئ، ولذلك لا يكفي القول أنّ اللغة هي وسيلة للتعبير، وإنما تعتبر وسيلة لنقل الأفكار من المتكلم إلى السامع، والكاتب في روايته استعمل اللغة أحسن استعمال إذ جسد لنا الأوضاع المتأزمة في فترة التسعينات بلغة جدٌّ قوية ومتصارع بين تراكيبها وجملها وكلماتها بشكل لفت انتباهنا، وهذا ما دفعنا إلى دراسة الصراع اللغوي الوارد فيها.

3)- عالم الرواية :

تنقسم رواية واسيني الأعرج إلى أحد عشر قسما معنونة كالتالي: مكاشفات المكان، ظلال المدينة، فتنة البربرية، حنين الطفولة، محنة الاغتصاب، الجمعة الحزينة، الجنون العظيم، البحر المنسي، حراس النوايا، إغفاءات الموت، نهايات المطاف.

يقدم الكاتب في روايته هذه صورة حية للجزائر في فترة العشرية السوداء، أين قام صراع بين أبناء الوطن الواحد، سقط جراءه الكثير من الضحايا الأبرياء، وترك أثرا سلبيا في نفسية الآخرين الذين نجوا من الموت بأعجوبة. كما خلف أزمة في المجال الاقتصادي والسياسي، الاجتماعي، الثقافي. كما عبر لنا الكاتب عن حقائق عاشها الشعب الجزائري وعانت منها كثير من البلدان العربية. وكل ذلك كان بسبب ظهور الخلافة الإسلامية ومحاولة تطبيقها الشريعة بالقوة، والتمسك بمظاهر التدين والتشدد فيها.

لقد صور الكاتب على لسان بطله الأستاذ المأساة الدائرة على أرض الجزائر بكثير من الدقة والصراحة في فترة التسعينات. فأدت الأوضاع المزرية المنتشرة آنذاك إلى ظهور أزمة الشعب الخطيرة، والمتمثلة في أزمة الهوية، السياسة، والدين، إذ يعتبر هذا الثالوث من أسس بناء المجتمع وأي خلل أو نقص في أحد هذه المقوّمات يؤثر سلبا على بناء المجتمع وتطوره، ويدفع به إلى النزول إلى أسفل المراتب، ويجعل البلد فريسة سهلة أمام أي عدوّ يتربص به، خاصة أن الجزائر كانت حديثة الاستقلال. فكانت أحداث الرواية بذلك نقلا حقيقيا لتحدي المواطن الجزائري للإرهاب والمفاهيم المدمرة .

ومن بين المواطنين الذين تحدوا الأوضاع السائدة، نجد مريم بطلة رواية "سيدة المقام" التي بذلت كل طاقتها لردع "حراس النوايا". الذين احتلوا المدن الجزائرية، خاصة مدينة الجزائر العاصمة، إذ يعتبرونها الموقع الاستراتيجي لفرض سيطرتهم ونشر أفكارهم المستمدة من الدين،

فتحدث الراوي على لسان مريم والأستاذ عمّا كان يشغل تفكيره ويؤرقه (الراوي)، فكان البطلان متنفسا له لإخراج المكبوتات التي كانت تضايقه، وتحرره من أجواء التي نشرتها الطوائف الإسلامية، والسلطة الحاكمة التي كانت متحالفة بشكل سري مع القادمين الجدد .

فكانت مريم راقصة البالي بعيدة كل البعد عن العقائد الدينية، والأستاذ مشغول بالفن الكلاسيكي الذي كان يدرّسه، وأعطى هذا للكاتب فرصة ظهور تيارين متباينين في روايته "سيدة المقام".

كان التيار الأول يبن الشخصيات التي كانت تمشي في التيار الاشتراكي والمعادي للإرهاب. مثل مريم وصديقها الأستاذ الجامعي، اللذان يحاولان التصدي وبكل قوتهما للهجمات الشرسة التي كان حراس النوايا يضربها على أفراد المجتمع الجزائري، خاصة وأن مريم كانت راقصة بالية ومحبة للفن والموسيقى وللثقافة بصفة عامة.

وقد زاد تمسكها أكثر بالمواجهة عندما أصرت على أداء مسرحية "شهرزاد" معشوقة "رمسكي كورساكوف"، وذلك تحت إشراف معلمتها الروسية " أناطوليا" التي طردت من الجزائر قبل انقضاء مدة عقدها مع معهد الفنون الجميلة في الجزائر العاصمة . بعد أن هددت بالقتل لمرات عديدة، مع العلم أن البطلة مريم، كانت مصابة برصاصة طائشة في دماغها بسبب المعركة التي شبت بين رجال الأمن وحراس النوايا، في منطقة قريبة من مسكن مريم. أما المواجهة الثانية فتمثلت في مواجهة مريم وأستاذها للأفكار والعقائد التي كان ينشرها حراس النوايا بين أوساط الجماهير بالقوة، ومحاولتهم السيطرة على سير حياة المجتمع المدني، فعملوا بذلك على استكمال ما ترك بني كلبون، وما خلّفوه من خراب ودمار في الأنظمة الحاكمة .

كما نجد من بين المواطنين الذين وقفوا إلى جانب مريم ضد القادمين الجدد "حراس النوايا" أستاذها في نقد الفن الكلاسيكي، وهو أستاذ جامعي، لكنه كان يعيش في صراع داخلي مع ذاته الممزقة في عالمه النفسي، وعندما خرج إلى العالم الخارجي لكي يتخذه كمتنفس له، ويخرج من حالة الاكتئاب التي كان يعيشها، أصيب بخيبة أمل بسبب إيجاده العالم الخارجي يتخبط في بحر من المشاكل، فيرغم على العودة إلى سجنه الداخلي بعدما وجد أن العالم الخارجي هو سجن ثانٍ.

ومن الشخصيات المهمة أيضا في هذا العمل الروائي نجد أستاذة مريم في الرقص، الروسية "أناطوليا" . والتي تعرفتا على بعض في مدينة سيدي بلعباس في مدرسة الفنون الجميلة، وعملت هذه الأخيرة على مساعدة مريم وأسرتها على الانتقال إلى العاصمة، من أجل استئناف تدريباتها في رقص الباليه لكي تجعل منها نجم من نجمات البلاد في هذا الفن، وهي من عرّفت مريم بالأستاذ الجامعي، فتكونت بذلك صداقة حميمة بين الثلاثة : مريم، الأستاذ، أناطوليا .

تناول الكاتب نبذ أناطوليا "لحراس النوايا". بسبب تهديدهم لها بالقتل، مع إغلاق صالة الرقص بالقوة إن لم تنجوا بنفسها قبل فوات الأوان، ويجب أن تعود إلى بلادها قبل أن تخسر حياتها، فساندهم في ذلك رئيس البلدية ذو التوجه الإسلامي الذي كان دائما

يخبرها بأنه مستغني عن خدماتها بكل احتقار ودناءة، وأن وجودها في البلاد غير مرغوب فيه على الإطلاق.

أما التيار الثاني المنبثق في تلك الآونة فكان يتمثل في التيار الديني الذي كان يمثله "حراس النوايا" وما جاؤوا به من عقائد وأفكار دينية متطرفة، ورغبتهم الجامحة في تطبيق القوانين والحدود التي تخدم مصالحهم، فقمعوا بذلك حريات الأفراد في المدن الجزائرية، وفرضوا أنفسهم على الكبير والصغير، حتى أنهم فرضوا أنفسهم على السلطة الحاكمة وجعلتهم يمشون تحت سيطرتهم، فعم بذلك الظلم والفساد، كما بادروا لتنفيذ حدودهم الشرعية (وغير شرعية) بإغلاق المحلات، والتدقيق في الهويات الحزبية والبطاقات العائلية، غير أن السبب الحقيقي وراء تصرفاتهم يكمن في عدم قدرتهم على تسيير أمورهم بالشكل الاعتيادي، في ظل النظام الاشتراكي الذي تبنته الجزائر في تلك الفترة، فعملوا على نشر الفوضى بين الأوساط العامة للجماهير، فخلفوا بذلك مآسي ومجازر تركت بصمة خوف وحرقة في نفسية المواطن الجزائري إلى يومنا هذا.

ومن ممثلي هذا التيار في هذه الرواية شخصية "العباس" عم مريم، إذ دخل في الطائفة الدينية واعتنق المفاهيم العميقة للإسلام. فكان يقضي كل وقته تقريبا في المسجد متفرغا لعبادة الله وأداء الصلاة، وكان عضوا في إحدى الجماعات الأصولية التي تميزت بمبالغتها في المواقف الدينية، مما أدى به إلى الإنفراد بنفسه والدخول

في عالمه الخاص وترك الحياة العامة، بسبب ترك الجماعة الإسلامية له عدة مرات في مواقف صعبة دون تقديم يد المساعدة له .

هذا بالنسبة إلى الشخصيات الرئيسة في الرواية، أما بالنسبة إلى الشخصيات الثانوية فنجد كلا من " أم مريم الخضراء " التي حدثتنا عنها مريم كثيرا، خاصة في فترة طفولتها وكيف عاشت، وكيف تزوجت مبكرا من ابن عمها " السي لحسن " الذي التحق بالجبل بعد شهر واحد من زواجهما ومن ذلك اليوم الذي خرج فيه من البيت لم يعد، وتحت ضغط أم زوجها "لالة حلومة " أرغمت على الزواج من أخي زوجها "العباس" تحت حجة التقاليد والأعراف السائدة في الوسط الريفي، لكن هذا الأخير بدلا من إسعادها، جعلها تعاني في حياتها كثيرا فعاشت في عالم رهيب تملأه الكآبة معه. إلاّ أن الشيء الوحيد الذي جعلها تقاوم المأساة هي ابنتها مريم وخاصة أنها ابنة "السي لحسن" الذي لم يعثروا على أيّ أثر له، وبعد فترة زمنية قيل أنه قتل من طرف إحدى المنظمات السرية قبل خروج المستعمر الفرنسي.

بالإضافة إلى شخصية "حمودة" زوج مريم، إذ كان موظفا بسيطا في البريد، وبرز دوره في محنة الاغتصاب وكيف تجرأ على إرغام مريم على الخضوع له بالقوة، لكن هذه العلاقة انتهت بالفشل وأدى ذلك إلى الطلاق بين مريم وحمودة.

كما برزت شخصية "عمي موح" الصياد الذي مثل عالم الخير في الرواية، وكانت مريم والأستاذ يترددان إليه باستمرار لإفراغ همومهم داخل البحر بين الأمواج المتلاطمة بالزورق، وكان يأخذهما في جولة في البحر لكي يحكي حنينه الداخلي ويخفف من همومه المتكاثرة بسبب نقص في العمل والحالة الاقتصادية التي وصل إليها...الخ.

وإلى جانب كل هذه الشخصيات نجد "الطبيب الفلسطيني" صديق الأستاذ الجامعي، والذي ساعد مريم كثير أثناء الأزمة التي عانت منها بسبب الرصاصة التي سكنت في رأسها وأدت في الأخير إلى فقدان حياتها .

هذا فيما يخص الشخصيات الواردة في الرواية والأدوار التي قامت بها، أما فيما يخص الأحداث، فنذكر في البداية الحدث المركزي لهذه الرواية، فهو يدور حول حقائق عاشتها الجزائر في فترة التسعينات فجسد بذلك صراع قوى الخير والشر بكل معنى الكلمة، بين "حراس النوايا" الذين فرضوا وجودهم بقوة السلاح لنشر عقيدتهم الإسلامية، وبين الفتاة المحاربة "مريم" المتمسكة بأحلامها وحريتها، ورفضها الجريء لأفكار"حراس النوايا"، وساندها في ذلك أستاذها.

ثم تلاه حدث مهم أيضا يتمثل في إصابة مريم بالرصاصة الطائشة في الاشتباك التي وقعت بين "حراس النوايا" و"رجال الأمن"، لكن إصرار مريم على محاربة الظلم رغم

مرضها كان قويا من أجل تحقيق آمالها وطموحاتها الكثيرة ، ومن بينها شوقها الكبير لتأدية " باليه شهرزاد " وإصرارها على إكمال مسارها الفني وتشبثها به.

لكن رغم إسرارها القوي على التصدي للتيار الديني والمضي قدما من أجل تقديم مسرحية " بالية شهرزاد " إلاّ أن الموت حال دون وصول مريم إلى تحقيق حلمها . مما أثر سلبا على نفسية الأستاذ وفقدان الأمل الأخير الذي تشبث به، خاصة أنه كان يعاني في داخله إذ قال:"أريد أن أتحرر من هذه الذاكرة المثقلة بالحنين والأوجاع".

وكانت معاناته كبيرة إلى درجة ميئوس منها، إذ خرج من المستشفى وتوجه مباشرة إلى "جسر تليملي" ليضع حدا لحياته ويتخلص بشكل أبدي من آلامه وأحزانه.

فيما يخص الزمن الروائي، فنجد الكاتب استخدم الماضي عندما استرجع واستحضر بطل الرواية آلامه وأحزانه والمكبوتات التي كانت تضايقه في أعماق نفسه، لأنه كان ماضيا أليما مليئا بالجراح، كما تناول قصة مريم في شكل استرجاع للأحداث التي مرّت بها البطلة ونهايتها المأساوية، وذكر لنا كذلك قصة أناطوليا التي عاشت مع مريم تلك الوقائع المأسوية بكل حذافيرها إلى غاية مغادرتها لأرض الجزائر.

كما عاد الروائي إلى الماضي عندما تحدث عن حياة "أم مريم" وزواجها في فترة الاستعمار، ووفاة زوجها الأول "السي لحسن"، وعاد كذلك إلى أحداث 5 أكتوبر 1988

المتمثلة في غضب الشعب الجزائري ومطالبته بحقوقه المتمثلة في: الحرية، العدالة، الديمقراطية، التغيير في التوجه السياسي، المطالبة بالعمل...، وجراء هذه المظاهرات العارمة في أنحاء المدينة تسبب ذلك في إصابة مريم بالرصاصة، فكل هذه الأحداث كان لها وزنها الثقيل في مذكرة الراوي مما أدخله في معاناة ويأس .

أمّا الزمن الحاضر فيتجسد في رواية "سيدة المقام"، عندما عبر عن الراهن المزري المتمثل في الصراع بين السلطة والإسلاميين، وتصوير الجرائم التي تحدث في الشوارع والأحياء والمساكن والمدارس والمعاهد خاصة الثقافية منها .

فيما يخص زمن المستقبل فتجسد في الحلم، وتمني الكاتب من إنهاء كل هذه الفوضى التي سادت البلاد ويتأمل بغد أفضل وأجمل، خاصة عندما قال: " غدا سنعبر كل شوارع المدينة ونتحدى " حراس النوايا" مع كل عشاق هذا البلد، وأحضر عرض الربيع القادم "[1].

وبهذا تندمج الأزمنة الثلاثة في ذاكرة البطل التي تشكل له عالم الاغتراب وتشابك عليه الأحداث المؤلمة التي تصاحب هذه الأزمنة.

[1]– الرواية ص 214

أما فيما يخص المكان الذي وقعت فيه الأحداث، فنجد المكان الأول الرئيسي هو مدينة "الجزائر العاصمة" إذ تدور معظم الأحداث وأهمها، فعمل الراوي على تقديم صورة كاملة لها، وتشخيص عدة أمكنة منها(من أحياء وشوارع) التي غزاها حراس النوايا بمعتقداتهم وحكمهم على النوايا دون ترك المجال للضحية من أجل الدفاع عن نفسها، فمن بين الشوارع المذكورة في الرواية نجد(باب الوادي، باش جراح، شارع ديدوش مراد...).

أما المكان الثاني فيتمثل في صالة الرقص، التي تعتبر المكان الوحيد للخروج من جو الكآبة الموجود في خارج جدرانها. كما يعتبرها بطلي الرواية متسعا شاسعا للتعبير عن أحاسيسهما بكل حرية وبعيدا عن أعين "حراس النوايا" وذكر كذلك الراوي مكان آخر يجد فيه العشاق فسحة للهروب من الأجواء المحزنة وهذا المكان يتمثل في شاطئ البحر المليء بالرومانسية والحنين والأشواق.

لكن رغم ذلك فإن " حراس النوايا " ينقضون كالنسور على كل الأماكن مهما كانت بعيدة أو قريبة.

أما مكان نهاية الأحداث فقد كان في المستشفى حيث قضت مريم أيامها الأخيرة بسبب تعرضها لنزيف في دماغها لقيامها بحركات كثيرة وعنيفة عندما قدمت مسرحية "شهرزاد " رغم أن الطبيب طلب منها أن تقلل حركتها إلى أقصى حد ممكن، إلاّ أن حبها

للرقص دفعها إلى ارتكاب الحماقة فأدت بها إلى الدخول إلى المستشفى، وكانت كل هذه الأحداث أمام أعين الروائي .

ورأى حبيبته كيف كانت تصارع الموت، إلاّ أنه تمكن منها وأودى بحياتها . فخرج الأستاذ وهو مثقل بالأحزان والآلام فتوجه دون وعي منه إلى جسر تليملي، أين وضع حدا لحياته فبدأت بذلك رحلة الموت في الحياة، رحلة الألم والشقاء والمعاناة .

الفصل الأول: الهوية والتفاعل الثقافي في لغة الرواية

الهوية والتفاعل الثقافي في لغة الرواية:

يعتبر النص الأدبي الروائي ظاهرة اجتماعية قبل كل شيء، لأنه ينشأ ويتطور داخل مجتمع يحضنه من كل الاتجاهات، خاصة من جهة ثقافة المجتمع والفرد، فالنص الروائي يَتأثر ويُؤثر في معتقدات الفرد، لينتج لنا في الأخير أنساقا إيديولوجية تشرح لنا الظاهرة الروائية بمحتواها. والذي يتضمن بدوره الهوية الثقافية التي تتحقق بمقومات سنتطرق إليها بتفصيل أكثر وإعطاء المجال للقارئ لفهم محتوى رواية "سيدة المقام"، التي سنبحث فيها عن الأشياء المحققة للهوية فنذكر منها: الايدولوجيا وعلاقتها بالهوية، دور الانتماء الجغرافي في تحقيق الهوية، الحب ومدى وقعه في تحقيق معنى الوجود، والبعد الإنساني ومساهمته في تحديد الانتماء الثقافي للكاتب. ونأمل من خلال دراستنا هذه وصول إلى إظهار هوية السارد في رواية "سيدة المقام" وشرحها أكثر للقارئ.

كما سنعمل في المبحث الثاني من الفصل على البحث في الأشياء النافية للهوية الواردة في الرواية نفسها ونذكر منها: الضغوط الاقتصادية (صراع إيديولوجي)، رقابة السلطة وأثرها السلبي على المواطن، سلبية الأفكار تقضي على المجتمع وتؤثر في الدين، وأخيرا تحميل نفسية المواطن بالمادية القاتلة (تشيء). ومنه سنبين كذلك الأفكار الواردة في الرواية والتي تعتبر وسيلة لقتل هوية الفرد وشخصيته.

من هذين المبحثين نأمل إعطاء ولو جزء بسيط من ملامح الهوية للكاتب "واسيني الأعرج" من خلال دراسة خلفيات ما جاء في روايته "سيدة المقام". وذلك بالتركيز على اللغة التي أبدع بها عمله الروائي.

المبحث الأول: محددات الانتماء الثقافي في الرواية:

كما أسلفنا القول سابقا، سنتطرق إلى ذكر أهم المحددات التي ستساعدنا على إبراز أهم الصفات الواردة في الرواية و التي تتعلق بالثقافة. ودور هذه الأخيرة في تحديد الانتماء الجغرافي أو القومي أو الإيديولوجي للكاتب. ومن بينها نجد :

1)- الإيديولوجيا وعلاقتها بالهوية:

قبل الولوج إلى العلاقة التي تربط الإيديولوجيا بالهوية نتطرق إلى مفهوم الايدولوجيا، التي تعرف بأنها "علم من العلوم تعتمد على العقل والتربية وهي التي تخلص البشرية و تحررها"[1]. أما المفهوم الشائع والمتداول عند الناس فهو مجموعة الآراء والأفكار و المعتقدات و الفلسفات، التي يؤمن بها شعب ما، أو أمة أو حزب أو جماعة. فكل إيديولوجيا بما فيها الفن أو ما يسمى بالآداب الجمالية، إنما تعبر عن الميول والأحوال النفسية للمجتمع بعينه. فالعمل الروائي الذي نحن بصدد دراسته، ألا وهي رواية

[1]-جورج لارين: الإيديولوجيا والهوية الثقافية(الحداثة و حضور العالم الثالث)، تر: فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولى، (ط-1)، القاهرة، 2002، ص56.

"سيدة المقام" للروائي "واسيني الأعرج"، تعتبر كقصيدة شعرية تتضمن كل البحور الموزونة، بما فيها بحر الحب وبحر الجنس وبحر الدين وبحر السلطة و بحر الإيديولوجيا...الخ.

تحمل الرواية في طياتها تاريخ الوجع الجزائري. المتمثل في أحداث أكتوبر 1988، الانتفاضة الشعبية التي كانت من نتائجها إصابة " مريم " بالرصاصة الطائشة، وكانت هذه الأحداث بداية حقيقية للأزمة والعنف المتزايد بجميع أنواعه، والتي ظلت تعيشه الجزائر طيلة أزمة الرواية.

" تبقى الإيديولوجيا نوعا من تشويه الفكر الذي يسعى إلى تغطية الواقع أو إخفائه، وهي لا تخفي صور أو أشكال السيطرة الطبقية فحسب، ولكن تخفي أشكالا أخرى من القهر العرقي والسيطرة الاستعمارية التي تؤثر على المرأة والأقليات العرقية وشعوب العالم الثالث. كما أن الإيديولوجيا تعبر عن الميول و الأحوال النفسية للمجتمع" [1]، فنجد الكاتب في رواية "سيدة المقام" طبّق ذلك، فهو بصدد ذكر مختلف أوجاع الشعب الجزائري في تلك المرحلة، والأوضاع المزرية التي كان يعيشوه الشعب الجزائري عامة وفئة المثقفين خاصة. وتطرق الكاتب إلى ذكر سوء الأحوال التي كان يعيشها السارد (البطل) ومريم، التي كان حلمها الوحيد الرقص.

[1]– جورج لارين: الإيديولوجيا والهوية الثقافية، ص17.

ففي قوله: "كان الضجيج يتعالى و الصرخات و الضحكات، و الآن الصمت يلفّ الدّوائر. يأكل الناس، أو يشربون أو يشترون. كل شيء يتم بصمت". ويضيف قائلا: "مدينتنا فقدت رغبتها في الاحتفال تستأنس مع الشقاوة المزمنة"[1]. فالكاتب يصف لنا كيف كانت حالة مدينة الجزائر تعيش بسلام، وكيف تحول ذلك السلام إلى شؤم وخوف وعذاب، فالكلمات لا تكفي للتعبير عن مدى الأحوال المزرية آنذاك، كما أنه وصف لنا حالة مريم الميئوس منها والتي كانت الضحية في تلك الأحداث الكئيبة.

كانت شدة اليأس تتكاثر والتعاسة تنتشر بين أوساط الجماهير، والسارد فقد الأمل بأن تشفى الجزائر من حروقها لأن النيران اندلعت في كل مكان، فأكلت اليابس والأخضر معا. وبما أن الإيديولوجيا هي مجموع الأفكار والمعتقدات التي تؤمن بها الجماعة، "فحراس النوايا" بعد مجيئهم إلى المدينة حملوا معهم معتقداتهم وأفكارهم الدينية وعملوا على نشرها بالقوة، وأول ما عملوا على طمسه. بعض الفنون الثقافية خاصة رقص البالي، إذ يعتبرونه زندقة وكبيرة من الكبائر التي لا يغفرها الدين و الشرع. وأعطى لنا الكاتب مثالا عن معاملة حراس النوايا للمواطنين، بقوله: "معاهد الفسق والزنا. يجيء وقت، سنمحو هذه الفضلات ونحولها إلى بيوت خيرية. لو كان ما جاتش عندك حصانة أستاذ جامعي، كنت مسحت بك

[1]– الأعرج واسيني: سيدة المقام ، منشورات الفضاء الحر، الجزائر ، (ط–1)، 2001، ص 14 و 15.

الأرض مثل الجرو.. بهدلتم الجامعة. مسختموها بالكلام الفاسق"[1]، فهنا تريد الجماعات الإسلامية محو الآفات السيئة التي كانت منتشرة آنذاك من خمر وزنا، وتسعى لنشر العقيدة الإسلامية والأخلاق الجيدة، التي تسعى بدورها لتربية الأجيال وتحويل صالات الفن والموسيقى إلى بيوت خيرية، كما أنهم يريدون استرجاع صورة المرأة التي عاشت في صدر الإسلام بجلبابها.

فمن ثم نصل إلى القول بأن لكل مبدع مرجعا سياسيا، واجتماعيا، يستند إليه ويعبر عنه. كمنهاج من الفعل يرتكز على قاعدة فكرية معينة، تتخذ صفة السلوك الثقافي المعيشي، "فشخصية الأديب المرتكزة على ثقافة إيديولوجية هي المحرك لخصوصية المبدع، وفي ضوء ذلك تبرز شخصيته التي تختلف من إنسان إلى آخر إثر الأساليب المميزة التي تتأثر بالبيئة الاجتماعية والتاريخية. وعوامل الزمان والمكان الذي يعيش فيه الإنسان حياته، ويتفاعل مع الأشياء والأشخاص مدى الحياة".[2]

[1] – الرواية ص 190.

[2] – أحمد علي الفينش: أصول التربية، الدار العربية للكتاب، (د–ط)، 1982، ص95.

2)- دور الانتماء الجغرافي في تحقيق الهوية:

يعتبر هذا العنصر من أهم مقومات الهوية. إذ كانت مدينة الجزائر العاصمة في رواية "سيدة المقام" الحيز الذي اكتنف أحداث العشرية السوداء التي عاشتها كل أقطار الجزائر عامة، والعاصمة بوجه خاص. فاعتبرها حراس النوايا كركيزة أساسية من أجل تغيير النظام السائد فيها، والإيتاء بنظام يخدم مصالحهم الشخصية تحت راية الإسلام. لكنهم زرعوا الاضطراب والخوف والهلع في أوساط الجماهير، فتحولت المدينة البيضاء في نظر الروائي إلى صحراء قاحلة يقتل فيها القوي الضعيف. فكانت الفئة المثقفة الضحية الأولى لهذه الأوضاع، بسبب النظرة السلبية التي عمل على نشرها حراس النوايا. وباعتقادهم أن المثقف نقطة سلبية في المجتمع الديني فيجب التخلص منه، وهناك كثير من المثقفين من يئسوا من الأوضاع فقرروا ترك المجال الثقافي خوفا من مصير مجهول ينتظرهم إذا عاندوا، لكن مريم و السارد (الكاتب) تشبثوا بالقيم الثقافية من أجل المضي قدما والالتحاق بمصاف الدول المتحضرة، فبقوا بالمدينة رغم سوء الأوضاع فهي بالنسبة لهم الجوهرة الحقيقية للإثبات هويته.

لكننا نجد السارد في بعض الأحيان بدأ يسأم من تلك الحالة، و يشعر أنه ليس مواطنا على الإطلاق. وأنه لا ينتمي إلى هذا البلد الذي يدفع به إلى الانتحار أو ترك عمله في الوسط الفني ويلعن مثل هذه البلاد التي لا تستطيع حتى توفير أدنى شروط الأمان

والاستقرار لسكانها. ثم انتقل إلى وصف كل شوارع المدينة الضيقة منها والواسعة. وفي كل شارع يمر به يحس بإحساس قوي يجذبه إلى تلك المدينة، و بشيء يغمره بشدة في أعماق قلبه و يعمق داخله حب الوطن و المدينة. رغم أنها أصبحت قديمة وعتيقة لكن قبل زمن قصير كانت مليئة بالحياة، أسطحها القرميدية الرّائعة التي بدأت تخضرّ بفعل الزمن تعطي الإحساس بالمدن الأوروبية.

تلك المدينة التي صنعت منه رجلا وجمعته بمريم حبيبته، فلا يقدر على فراقها مهما حدث. كما وصف لنا سحر البحر الموجود على الجهة ليسرى وهو يركض بسرعة هربا من زحف البنايات لكنه رغم كل شيء أضاف إليها جمالا وبهاءً، وكان هذا قبل مجيء حراس النوايا وقبل إصابة مريم بالرصاصة إذ يعتبره العشاق مكانا للتنفس والخروج من أجواء المدينة المرهقة والمقلق، من سكانها الذين يدمرونها كل يوم، ويسيرون بها إلى الهاوية، تموت يوما بعد يوم مثل ريف قديم وتتحول إلى قرية صغيرة، تتهاوى مثل الورق اليابس.

ذكر الكاتب كذلك مستشفى "مصطفى باشا "لأن مريم قضت أيامها الأخيرة فيه، إذ قال: "المستشفى عالِ، عالِ يبحث عن سماء ضيّعت ألوانه الأصلية وحالت فجأة

مثل خرقة بالية. الأشجار انحنت ويبست في هذه الساحة الواسعة بلا أيّ معنى، مثلها مثل المدينة التيّ لم تعد مدينة. شكل آخر بدأ ينشأ داخل هذا الفراغ المقلق"[1].

في ظل كل هذه الصراعات والتقلبات التي تأتي من كل الاتجاهات. السارد تمسك بمدينته إلى آخر دقيقة من أنفاسه، وعندما فقد الخيط الوحيد الذي كان يربطه بها ويتمثل في حبيبته مريم التي عملت على التآلف مع الكآبات والأحزان، وناضلت في وجه الغزاة إلى أن خار قواها، خصوصا بعد انسحاب صديقتها المقربة أناطوليا التي علّمتها الرقص منذ كانت صغيرة في مدينة سيدي بلعباس، فبغياب أستاذتها التي علمتها كيف تحلم وتحب الحياة، فقدت العزم على الاستمرار في العيش. وترى أن المدينة فقدت رونقها وتألقها بفعل الرياح الساخنة التي هبت عليها فأحرقت الأخضر واليابس، دون أي استثناء أو تمييز ودون أيّة رحمة أو شفقة. فصرح الكاتب بذلك عندما قال: "مدينة خيمة. تقفل شبابيكها و أبوابها في الساعات الأولى من اللّيل. فقدت الكثير من أنوثتها وأهوائها وأشواقها التّي لم تكن تحدُّ. نساء هذه المدينة كنّ مدهشات وجريئات. دفعن ذات قتامه، إلى جحورهنّ، نحو البيوت الضيّقة. وكلّ من خرجت، تخرج عمرها

[1]– الرواية ص7.

قبل أن تصل إلى البيت. الطّفل يضرب بالحجارة. الكبير يصرخ...المراهق يعاكس ببدائية كبيرة..."[1]

لكن رغم مرور كل هذه الأزمات الصغيرة منها و الكبيرة على رأس السارد ومريم، إلاّ أنهما واصلا المضي قدما، وعملا على تقديم كل طاقتهما لإخراج المدينة من الكابوس الذي كانت تعيشه يوميا بسبب "حراس النوايا".

لم يخرج الكاتب كثيرا عن الأجواء التي كانت تعيشها العاصمة إلاّ أثناء العودة إلى لماضي، وإلى أصل مريم؟ وكيف عاشت سعيدة في مدينة "سيدي بلعباس" وذكر قرية أمها. لكن مجمل الأحداث الرئيسة وقعت في الجزائر العاصمة.

3)-الحب ومدى وقعه في تحقيق الوجود:

الحب سمة من سمات تحقيق الذات، وعندما يصل الفرد إلى إثبات نفسه وفرض منطقه في الحياة بطريقة مسالمة، فإنه يكون بذلك قد وصل إلى معنى الوجود. لأن الحب هو رمز للإنسانية الحق، وهو كذلك مشروع حياة الإنسان منذ ولادته إلى غاية مماته، فبالحب يذوق معنى هذه الدنيا و يقنع غيره بضرورة التحلي بهذه الصفة التي بفضلها يحقق الفرد وجوده وهويته.

[1]- الرواية، ص40.

يتناول الكاتب في هذه الرواية إصابة مريم بالرصاصة الطائشة في ذلك الجمعة الحزين. تلك المرأة المتعلقة بالحياة وكل شيء له علاقة بالإنسانية والفن والأمل في البقاء، رغم معرفتها بالمصير المشئوم الذي كان ينتظرها، لكنها كانت تؤمن بشيء وهو أن البلاد مليئة بالحبّ و الغناء و الموسيقى، فكرست باقي أيامها للرقص وعملت على تقديم مسرحية " شهرزاد " التي تعشقها رغم أن ذلك كان يعجل في نهايتها، لكنها كانت مصرة على أدائها ولو لأستاذها وأناطوليا فقط، ويتجلى ذلك في الرواية عندما قالت : " قلت لك سأرقص صها ولو أرقصها لك وحدك..."[1]، رغم معارضة الأستاذ لذلك، إذ اعتبر صحتها أولى من كل شيء. لكن رغبة مريم في الهروب من تلك المأساة والأحزان، وخاصة عند تذكرها لحنين الطفولة التي هي حالة رفض الواقع الراهن، واقع شبيه بالموت منه إلى الحياة، واقع مقفر يجعل السارد البطل أكثر، رغبة في الهروب إلى البدايات الأولى، إلى الطفولة المشرقة، ونجد ذلك ظاهرا من حديث مريم عندما قالت: " أتذكر مدننا، وذات الشوارع والممرات الواسعة، التي كانت تشعل بالأنوار والفرح. سيدي بلعباس وشحال فيها ناس..."[2]، كما أضافت قائلة: " وحياتك حتى في هذا البلد توجد أشياء رائعة و لكنها تزيف يوميا... الأوصياء الجدد عاجزون عن عشق هذه الحياة والسابقون تركوها للذئب"[3].

[1]- الرواية، ص 134.

[2]- الرواية، ص 69.

[3]- الرواية، ص 86.

نجد الكاتب يئس من الأوضاع السائدة التي تمنع من حب المدينة، وتمنع من حب الحياة، فالموت أهون من العيش في مدينة ساحلية لكنها قاحلة. كما أننا نجد مريم تعيش أسوء أيامها لرؤيتها المدينة ضائعة، وثقافتها ميتة، والتحولات التي طرأت على بلدها الحبيب. فزرع ذلك الشؤم في نفسيتها، لكنها على الرغم من ذلك لم تفقد الأمل، فأقسمت أن تقدم حياتها من أجل الوطن والمدينة، فكافحت من أجل إحياء الثقافة الجزائرية،

وأصرّت على الرقص رغم سوء حالتها الصحية. فكانت لا تخاف من شيء ولا يستطيع أحد منعها من ذلك "مريم...رقصة المجنونة الأخيرة. حين تأتي لا تسأل و حين تدخل القلب لا تستأذن مطلقا، تدخل بحذائها الرّقيق وألبستها الفضفاضة ".[1]

جنون مريم جعل منها تتشبث على هويتها رغم الأوضاع السيئة آنذاك، إلاّ أنها كانت ترى أن الفنان ولد ليحيا داخل الرقصة والحرف والموسيقى. وهذا كان سلاح الفنان المحب لبده، والحريص دائما على الوقوف بجانب شعبه في الأوقات الصعبة، مثل التي مرة بالجزائر في تلك الآونة. فكان الأستاذ كلما يرى مريم في تلك الحالة فإنه يقف إلى جانبها دائما و يساندها في كل شيء، فيقول:" يا مريم// ما أعظم صوتك وصمتك في مدينة صارت لا تتكلم، و لكنها تهذي بقوة"[2]. وهكذا تكون رسالة الفنان دائما موجودة، إذ لا تتأزم

[1]– الرواية، ص 29.

[2]– الرواية، ص 38.

الأوضاع إلاّ و يأتي يوم الانفراج وتزول الآلام والمآسي وتحل محلها السعادة والفرح، ويحل فصل الربيع على الجميع، ويحمل معه الكثير من التفاؤل بيوم مشرق يمحو كل الأحزان الماضية، لكن الشيء الوحيد الذي لا يمحى من ذاكرة كل فنان، ومحب للفن هو ذلك الصدى المليء بالعشق والحب والحنين، الذي انبثق من أناس عاشوا الأزمة لكنهم لم يفقدوا الأمل بأن يأتي يوم تعم فيه السعادة.

فيحول بذلك القلوب إلى نور مشع، لا ينطفئ نوره عبر العصور بفضل كفاحهم وتقديم النفس والنفيس من أجل ترسيخ هويتهم عبر الأجيال القادمة، رغم أن هناك من فارق الحياة قبل أن يرى و لو بصيصا من الأمل يشرح صدره، و يطمئن نفسه، بأن بلده أو مدينته أو قريته أو شارعه سيحل عليه السلام بعد صراع دام وقتا من الزمن. فالبطلة في هذه الرواية لم تعش الاستقلال إلا أنها خلّدت اسمها بين الذين ضحوا من أجل الوطن، والسارد البطل كذلك التحاق بها لكنه دون بنفسه تاريخهما معا.

4)-البعد الإنساني ومساهمته في تحديد الانتماء الثقافي للكاتب:

"للهوية مظهران أساسيان. الأول هو الاسم الذي يميز الشخص عن أخيه، والثاني هو الروح الذي يميّزه. إلاّ أن العديد من الناس قد ألبسوا روحا مثقلة بدلالات دينية تصرف الانتباه عن معناه الجوهري. فأما الذات أو الشعور فهي مثقلة على نحو مشابه"[1].

فإن روايتنا "سيدة المقام" هذه كان البطل فيها يعيش الموت طيلة أحداث الرواية فكان "الأستاذ" في حياته يمارس فن الكتابة في الجزائر، و"مريم" كانت "راقصة البالي"، ولكن بعد مجيء مجموعة "حراس النوايا" الذين أسقطوا السلطة في الجزائر العاصمة، وغيّروا الأوضاع التي كانت تعيشها في مختلف المجالات، فنجد أن البطل يعيش الموت باستمرار. بسبب فقدانه لبلده العزيز ورؤيته للتغيير الجذري الذي طرأ على البلد، من تحويل صالات الفن إلى ديار للمنكوبين، و قاعات الثقافة إلى بيوت خيرية، وقتل الثقافة الجزائرية. فجعل السارد يتمزق في داخله لأنه عاجز عن التدخل وإنقاذ ما يمكن إنقاذه فقال: "كان من الصعب علي تصديق ما حدث، الموت يبدو سهلا في هذه البلاد الكئيبة. حتى وأنا أرى صديقي الطبيب الفلسطيني ينزع الخيوط التي كانت تعطيك الحياة كان من العسير عليّ أن أصدق ما حدث"[2]. فحالته كانت حزينة لدرجة أنّ عقله لا يستوعب ماذا يحدث

[1]- جون جوزيف: اللغة و الهوية، ص5.

[2]- الرواية، ص 13.

أمامه، "مدينة ساحلية كانت تعشق الألوان و وقوقات النّوارس البيضاء، صحّرها بنو كلبون ويجهز عليها الآن حراس النوايا".[1]

قامت أناطوليا بتعليم مريم الرقص. وكيف تتعايش مع الآخرين بكل صدق وتفاهم، لكي تكون حقا فنانة راقية، كما ساندتها في كل شيء تقوم به. وكانت قريبة إلى قلب مريم أكثر من أمها، وقبل رحيل أناطوليا من البلاد بشكل رسمي ودون أن تعود، طلبت من مريم أن تحافظ على صحتها قبل أي شيء لأنها هي أساس الوجود، وألاّ ترقص بعنف لكي لا توقظ الرصاصة النائمة في رأسها. " أنت عظيمة يا مريم، ولكن اهتّمي بصحتك أرجوك." كما طلبت من الأستاذ كذلك أن يحرص و يحافظ عليها من كل سوء. لأنها تعرفها جيدا وهي رقيقة وحساسة، إذ قالت: "أرجوك،Garde la dans tes yeux. (احفظها في عينيك) هي رقيقة و هذا الخراب مخيف، رقيقة وتتكسر بسرعة مذهلة.[2]

هنا نكتشف البعد الإنساني الكبير عند أناطوليا، رغم أن السلطات أرغمتها على مغادرة البلاد بطريقة غير لائقة بمقامها لأنها أمضت أكثر من ربع قرن في خدمت بلاد ليست ببلادها بكل تفان وإخلاص، خاصة عندما بحثت في مسرحية " فتنة البربرية ". وعملت على إخراج عمل مسرحي حقيقي بكل معنى الكلمة لكنها تكافئ بالطرد بأبش الطرق

[1]– الرواية، ص 12.

[2]– الرواية، ص 163.

مع إهانتها، رغم أنها حاولت كثيرا أن تمكث في البلاد، حتى أنها تنازلت عن راتبها بالعملة الصعبة ورضية بالدينار، لكن إصرار حراس النوايا كان أكبر حتى أنهم هدّدوها بالقتل إن لم ترحل. وعندما وصلت الأمور إلى طريق مسدودة فضّلت الانسحاب بهدوء قبل أن تفقد حياتها، رغم أن ذلك كان صعبا عليها بسبب تعلقها بالوطن و بمريم.

يظهر البعد الإنساني كذلك عندما صرح السارد لمريم بضرورة الاعتناء بنفسها، قبل أي شيء لأن البلاد ليست في حالت تسمح لها بمكافأة إنجازات الفنان، حتى أنها لا تنظر إلى المجال الثقافي بصفاته الايجابية التي يحملها، لأن "حراس النوايا" شوّهوا كل ما هو جميل وكل ما يدعو إلى التحضر، إذ اعتبروه نفاقا و خروجا عن الأخلاق والدين. وتؤثر تلك العروض المسرحية خاصة منها الراقصة على المرأة بالدرجة الأولى، ويعتبرون ذلك دعوة مباشرة للمرأة على الخروج من القيم الدينية والخروج عن تعاليم الإسلام بشكل صريح. قال الكاتب: " الحياة تعطى مرّة واحدة. فإذا كان من العبث عيشها وسط البؤس فمن الجنون الانتحار".[1]

[1]– الرواية، ص 166.

المبحث الثاني: دلالات الاستلاب ونفي الهوية في الرواية:

سنعالج في هذا المبحث الأشياء التي تسلب الهوية قوتها، وتجعلها ضعيفة أمام أي ريح تضربها، ومنه يصبح الفرد معرضًا لنفي شخصيته ومكانته إما في مجتمعه أو في المجتمعات الأخرى ككل. وهذا من خلال تحليل الرواية التي نحن بصدد دراستها. فمن هذه الأشياء سنتعرض إلى :

1)- الضغوط الاقتصادية والصراع الإيديولوجي:

انتهى عهد الثورات الكبرى في العالم العربي، دون أن يأتي عصر الإنجازات والطموحات التي طالما تغنّى بها ساسة البلدان قد أحبطت جميعا. ولا يبدو أن الحقبة القادمة قادرة على خلق تربة خصبة صالحة لإعادة بناء القوى الاجتماعية التي حملت لفترة طويلة في تاريخ العرب الحديث. فالتيار الاقتصادي مجموع نظام إنتاج و توصيل المعارف الذي ساد الحقبة الماضية وعبر عنها في الوقت ذاته.

مست رواية "سيدة المقام" النظام السائد في الجزائر في تلك الفترة، إذ يعد نظامها الاقتصادي جديدا في تلك الآونة لم تستطع الحكومة التحكم فيه، فأحدث خرابا في أواسط الجماهير. حيث صارت كل السلطات المهيمنة تعمل على تحقيق مصالحها الشخصية،

فعمت بذلك الفوضى في كل المجالات حتى وصلت إلى المجال الثقافي، والذي يعتبر في نظر الكاتب نقطة مهمة لبناء الأمة.

جسّد لنا ذلك بمجيء "بني كلبون" ثم أعقبهم " حراس النوايا " الذين عملوا على تغيير النظام من جذوره، فتذبذبت بذلك كل الأوضاع، حتى الجانب النفسي لم يمنع منهم، إذ زرعوا الخوف و الرعب في نفوس المواطنين و سرقوا منهم حريتهم. وحولت مصالح الشعب و أملاكهم إلى أشياء تخص حراس النوايا دون سواهم، سواء بالتي هي أحسن أو بالقوة. مارسوا سياسة العنف والإرغام على التخلي عن أي شيء من أجل الحفاظ على حياتهم وحياة أولادهم وأقربائهم.

كما تتجلى مظاهر الضغوط الاقتصادية في الرواية من خلال حديث الكاتب عن مصير دور الثقافة وقاعات المسرح و صالات الرقص و المدارس الفنية العليا، التي حولها رئيس البلدية بعد ضغط من "حراس النوايا" إلى ملاجئ للمنكوبين الذين تضرروا من الزلزال الذي ضرب المدينة، وكانت تلك سياسة متبعة عمدا للاستيلاء على دور الثقافة. إذ لم يكن هذا الفعل سوى رسالة غير مباشرة من طرف "حراس النوايا" للمثقفين والعاملين في المجال الثقافي ، لاعتبار هذا النوع من العمل خروجا عن الدين والأخلاق ومساس بحرمة المجتمع الديني الذي يريدون تكوينه بالقوة.

في موقف آخر للكاتب بيّن لنا أن الأزمة الاقتصادية التي مست الجزائر في تلك الآونة، هي التي شجعت على ظهور مثل هذه الطوائف المتطرفة، إذ قال: "البأس هو الذي جاء بهم. لا يعششون إلا داخلا الأزمة"[1]. كما ساهمت في ظهور البطالة، ونقص السكن، وتفشي الأمراض والأوبئة الفتاكة، ونقص الأدوية والأطباء المتخصصين، إلاّ شيء واحد تزايد بنسبة كبيرة وهو الزيادة في المواليد، فأثّر ذلك سلبا على العائلات الجزائرية، لأنها صارت غير مكتفية ذاتيا. حيث اضطر الناس إلى إخراج أبنائهم للعمل وهم في سن مبكرة، كحال الطفلة "نزهة" التي صادفها الأستاذ ومريم على شاطئ البحر وهي تبيع النوار لمساعدة عائلتها.

لقد مورست هذه الحيلة عمدا. أي حيلة ترك الأوضاع تتأزم بين الجماهير من أجل خلق فوضى عارمة، لا يستطيع أحد التحكم فيها، فيؤثر ذلك سلبا على النظام الحاكم للإسراع في التخلص منه واحتلال حراس النوايا مكان بني كلبون. فأصبحت المدينة غابة والمواطن ذئبا، فما سرقه ابن كلبون من خزائن الدولة وما بنوه من فيلات لهم ولأولادهم،

والحسابات البنكية التي فتحوها في البلدان الأجنبية، ومن كل ما أخذه الأوائل جاء حراس النوايا ليأخذوا فرحة المواطن وحريته واستقراره وسلامته، وحب العشاق والحكم على النوايا دون أي حجة أو دليل مقنع يثبت إدانتهم ودون أي فرصة تمنح للضحية للدفاع عن نفسه،

[1]– الرواية، ص 162.

إذ يعتبرون أنفسهم الأصح دائما وفي كل شيء وفي كل ما يفعلون ومن لا يسير في طريقهم و يتبع سنتهم يعتبر مذنبا في حق المجتمع والدين.

2)- رقابة السلطة وأثرها السلبي على المواطن:

من الأشياء النافية والمعادية لاكتمال هوية الفرد والمجتمع، ممارسة السلطة الرقابة على مواطنيها بطرق شرعية وغير شرعية، وإحاطتهم بقيود تكبل حركتهم وتمنعهم من التعبير عن آرائهم بكل حرية.

منذ القديم كان انتهاك قوانين السلطة يعتبر جريمة، كما يعتبر كذلك أمر المطالبة بحق ما مخالفة من الدرجة الأولى، وهذا ما نلمسه في رواية "سيدة المقام" وذلك بدأ من مراقبة " أناطوليا" التي تعتبر أجنبية شيوعية في نظر "حراس النوايا" رغم مكوثها في الجزائر أكثر من ربع قرن، كما سهرت على خدمة البلاد رغم أنها ليست جزائرية. إلاّ أنها حرصت على تقديم الأفضل والأحسن دائما للمواطن الجزائري، إلاّ أن رقابة السلطة عليها كانت كثيرة وغير مبررة، لأنها كانت تمارس واجبها لا أقل ولا أكثر.

لكن أصحاب النوايا الخبيثة عملوا على فسخ العقد الذي يربطها بالمعهد العالي للفنون الجميلة قبل انتهاء آجاله، ومارسوا عليها ضغوطات كثيرة، وأرسلوا إليها تهديدات لا تعد

ولا تحصى، حتى أنهم قتلوا كلبتها، وكل هذا يعبر بشكل صريح بأن وجودها في البلاد غير مرغوب فيه. فإما أن تنسحب بهدوء وتحافظ على حياتها أو تختفي من الوجود، وفي النهاية استسلمت للأمر الواقع وقررت الانسحاب من أجل الحفاظ على سلامتها وحياتها، فتركت البلد الذي اعتبرته بلدها الثاني، والناس الذين اعتبرتهم بمثابة عائلتها، كمريم والأستاذ. فتأسفت للأوضاع المزرية وعبرت عن ذلك عندما قالت: "الغريب الدنيا تغرق، والدولة صامتة. اللّي يرضي كل الناس، لا يرضي نفسه. هذه فوضى وليست ديمقراطية"[1].

يعتبر الكاتب " بني كلبون " هم نفسهم " حراس النوايا "، فقد غيروا فقط من لباسهم لكن معاملتهم للمواطن كانت نفسها أو قل أكثر قسوة من السابقين. إذ يقف الحاكم أمام الأوضاع المتأزمة، و البلاد تسير إلى الهاوية يوما بعد يوم أمام أعينه، ويتفرجون على الفوضى التي عمت البلاد وهم مكتوفو الأيدي و كأنهم يتفرجون على أفلام العنف، فهم يساهمون في تأزم المشاكل وكثرتها، ويشجعون على ظهور الفتن بين أفراد المجتمع، وذلك لخدمة مصالحهم، إذ يمنعون كل تجارة لا تعود عليهم بالفائدة، كما منعوا بيع الخمر وأغلقوا الحانات. و يحاسبون الزوج إذا أخرج زوجته ليلا فينزلون عليه بالضرب والشتم،

[1]– الرواية، ص 161.

وينتهكون حرمته بكل بشاعة و أمام أعينه، ولا يملك خيار إلاّ الوقوف مشدود اليدين. ولا يستطيع حتى الحديث، وذلك لأنه لا يحمل عقد الزواج.

كما مارس " حراس النوايا " الرقابة على المثقف بشكل كبير، لاعتبارهم كل شخص مثقف يعرف أشياء كثيرة مقارنة بالشخص العادي، فيجب إسكاته قبل أن يفضح أسرارهم الخطيرة التي تؤثر على الرأي العام. ووجدوا في الدين مرتكزا لهم، وأي شيء يخالف الدين فهو فسق وخروج عن الطريق المستقيم، إذ قال الكاتب: نحن في مرحلة انتقالية. الدولة الإسلامية قادمة، إما أن ترجع للطريق المستقيم، وإما يطير رأسك. ويطير رأسك أفضل لنا و لك وللمجتمع ".[1]

فبفعل كل الرقابة التي تفرضها السلطات، نجد أن الأسرة لها قوانينها الخاصة والشديدة خاصة على المرأة، التي يجب أن ترتدي الحجاب لتفادي الشتم والإهانة في الطرقات، كما لا يجب أن تمشي مع رجل مهما كان قريبا من أفراد عائلتها، كما تشدد الخناق على البنات والطالبات في عدم الرجوع متأخرات إلى المنزل. وقد كانت أم مريم تنبه عليها بألاّ تتأخر في المساء رغم كل شيء أو ظرف كان خاصة عندما يتعلق الأمر بالتدريب على الرقص.

[1]– الرواية، ص 191.

3)- سلبية الأفكار تقضي على المجتمع وتؤثر في الدين:

جاء الجانب الديني في رواية "سيدة المقام" طاغيا بشكل كبير ومهيمن على الأحداث التي تتشكل منها الرواية، لأن الكاتب كان يتحدث فيها عن العشرية السوداء التي مرت بها الجزائر، والأضرار التي نتجت عن تعصب الطوائف الإسلامية، وما تحمّلهُ الشعب من قوانينهم الجائرة وأحكامهم السابقة على النوايا دون أن يتركوا المجال للضحية من أجل الدفاع عن نفسه.

عمل حراس النوايا على زرع القيم الدينية بالقوة وسط الجماهير، فسببوا حالة طوارئ في البلاد. لأن هناك من ساندهم لإيمانه بموقفهم، وهناك من ساندهم خوفا منهم، أما الفئة التي تعارضهم فكان مصيرها التصفية دون أية رحمة مهما كان طفلا أو شيخا أو امرأة، المهم عندهم تحقيق مصالحهم والقضاء على النظام السائد، والعمل على إنشاء دولة إسلامية تمنع أي خروج عن دائرة الدين والأخلاق. وبما أن السارد البطل كان أستاذ الفن الكلاسيكي والبطلة مريم كانت راقصة باليه فكان هذا يتنافى مع أحكامهم وقوانينهم.

لكن البطلة والسارد قررا أن يقفا في وجه حراس النوايا والتشبث في عملهما بالمجال الفني الثقافي، فأدى ذلك إلى إصابة مريم بالرصاصة الطائشة في يوم الجمعة الحزين. رغم تلك الرصاصة التي سكنت في مخها، إلاّ أن شيء لم يمنعها من ترك حلمها بأن تصبح أفضل راقصة على الإطلاق. بل جعلها الألم الذي تحمله معها أكثر إصرارا وتشبثا بموقفها الفني

ومواصلة الرقص و دعمها أستاذها و صديقتها الروسية في موقفها وساندها إلى آخر يوم من حياتها.

لم تقتصر النظرة السلبية لحراس النوايا و الطائفة الإسلامية على الفن والثقافة، بل تعدت إلى أفراد المجتمع الذين تأثروا بتلك الأحكام. إذ قالت مريم لأستاذها: "ألا تحب المطر أيها الرجل الصغير؟ الدنيا جميلة وتستحق أن تعاش. لا تكن مثل النعامة. عندما يأتي "حراس النوايا" وصلك رعبهم، ستموت مشويا، مشنوقا، مذبوحا، منتحرا، مت بشغف على الأقل. ماذا أقول، المخ يغلي، والداخل بدأ يتفتت"[1]. فنشأت بذلك معتقدات جديدة بين أفراد المجتمع. تتماشى مع ما زرعه " حراس النوايا " بالقوة في أذهانهم، فينظر المواطن إلى المرأة على أنها مجرمة بشكل أبدي. فإما أن تبقى حبيسة الجدران أو تجبر على لبس الجلباب الذي يغطيها من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين.

كما لم تقتصر المعتقدات الدينية التي انتشرت بسرعة على الكبار فقط بل حتى الأطفال الصغار تعلموا سن القواعد الدينية. ونجد ذلك عندما صادفت مريم تلك الطفلة على الشاطئ، وتعرفت على مريم أنها راقصة فقالت لها: "شفتك في التلفزيون. كنت ترقصين. أنا ثانية نحب الرقص، بصح نرقص سوا في الأعراس مع يمّا كي بابا ما يكونش

[1]– الرواية، ص 167.

معنا"[1]. فالطفلة هنا خائفة من أن يراها أبوها ترقص، بسبب النظرة السيئة إلى الرقص و الفن عموما، إذ يعتبرونه كبير من الكبائر، ويحرمونه بالقوة. كما يطلقون تسميات بذيئة على معاهد الفنون الجميلة، فيسمونها بمعاهد الفسق والزنا. كما يتهمون أساتذة الفنون بأنهم بهدلوا الجامعة الجزائرية، وينشرون فيها عادات سلبية بين الطلبة، وكلام وأفكار لا يمتان بأية صلة للمجال الديني.

نجد الكاتب في الرواية يذكر نموذجا عن امرأة تم حشوها بالمعتقدات الدينية، فقدم لنا نظرتها إلى المواطن الذي لا يعتنق مذهبهم، والمصير الذي ينتظره وذلك في قولها: " لقد أنشأنا محكمة، تعقد لإعدام الذين ارتدوا أو خرجوا عن تعاليم الدين، إما بالقتل المباشر، أو بنسف داره، أو اختطاف أبنائه وأهله حتى يسلم نفسه. نختار لهذه المهام شبانا في سن 18 أو20 سنة....تقتلون من؟ قالت أعداء اللّه. وشكون أعداء اللّه ؟ قالت: الشيوعيون، حزب فرنسا، البربر، البعثيون، الملحدون، العقلانيّون، اللائكيون، وأصحاب دعوات تحرير المرأة، نساء الجمعيات النسوية، جمعيات العهر و الفسق، والحكام..."[2].

[1]- الرواية، ص 172.

[2]- الرواية، ص 195 و196.

4)- تحميل نفسية المواطن بالمادية القاتلة(التشّيء) :

من الأشياء المعادية والنافية للهوية هي النظرة المادية للأشياء وعدم البحث في ثنايا الأمور، إذ ينظر حراس النوايا فقط من الزاوية السلبية اتجاه الثقافة، وخاصة الثقافة الواردة من الغرب. ويعتبرون كل ما هو حضاري خروجا عن الدين والأخلاق، ويرفضون أي نوع من التحضر فيعمل كل متشدد بالدين على قتل وطمث أي ثقافة تولد جديدة في المجتمع الجزائري، وبفعل كل هذه الضغوطات التي تكبل المثقف نجد رواية "سيدة المقام" التي بين أيدينا، تتطرق فيها الكاتب إلى ذكر أشياء تفقد الشخص إرادته وعزمه على الحياة.

بدءًا بإصابة مريم بتلك الرصاصة المعدنية التي عششت في مخها مما أفقدها الرغبة في الحياة، وحزنها الكبير عن الوضع الذي آلت إليه الثقافة الجزائرية. وكلما حاولت تجاوز المأساة تذكرها الآلام التي تخلفها الرصاصة في رأسها، فتدخلها في كآبة لا حدود لها. وهي لا تعاني وحدها بل حتى عائلتها و"أناطوليا" وأستاذها كلهم يعانون مثلها، خاصة أستاذها المتيم بها والذي يعمل بكل جهد على إسعادها ولو في أيامها الأخيرة،

وتعويضها كل الأوقات العصيبة التي مرت بها في حياتها. ومن الأشياء المادية القاتلة للهوية أيضا، في هذه الرواية نجد كذلك كسر أحلام مريم تلك المرأة المولعة بالرقص.

فنجد ذلك في قولها:" هل يعقل أن يسرق البحر؟

البحر كبير، قد نمنع من رؤيته، لكن لا أحد يستطيع احتكاره أو يحرمنا من رؤيته ولو في الحلم.

لست أدري، لكني دائما أشعر بحزن كبير أمام الأشياء المدهشة.

شيء فينا بني على الألم منذ زمن بعيد"[1].

بفعل كل الظروف الميئوس منها، والتي كانت تشد الخناق على "مريم" و"الأستاذ". توصل البطل إلى حل يساعده على الخلص من كل المشاكل وهو الانتحار والاندثار، مثل الريح و الاختفاء من الوجود، إذ مهما كان الإنسان مثقف أو متعلم فإن حراس النوايا أفقدهم قيمتهم، خاصة عندما أمسكوا بالسارد إلى مركز الشرطة وأهانوه بأبشع الصور، وفي الأخير رموه إلى المزبلة وهناك وجد سكرانا وساعده على الخروج من الأوساخ وخاطبه قائلا: " شفت يا صاحبي.. أنا وأنت الآن متساويان في هذا البلد. نرمى في نفس المزبلة، ونقف على نفس حافة البحر. لغة اليوم، هي لغة الدولار. والبزنسة يا ولد الناس. قد ما عندك، قد ما تسوى"[2].

هذا ليس إلا دليل على أن قيمة الفنان نزلت دفعة واحدة إلى قاع البئر، لأن البلاد كانت تتخبط في مشاكل لا تعد ولا تحصى. وهي تباع في الأسواق شأنها شأن السلع

[1]- الرواية، ص 170.
[2]- الرواية، ص 193.

الرخيصة التي تعرض على الأرض أمام المزابل، فكيف ينتظر المواطن، خاصة المثقف أن يرتفع شأنه. بل يشكل فقط نقطة سلبية في المجتمع يجب التخلص منه قبل أن ينشر أفكاره بين الجماهير، ويشكل أيضا خطرا على السلطة الجديدة التي تسيطر على البلاد، وتريد أن ترجعها إلى العصور الوسطى، أو قل عصر صدر الإسلام ويستعملون القوة في ذلك.

إذ قال الكاتب: "هو ذا العصر الثاني، الذّي انقرض بصعوبة، يأتي زاحفا بقوة ليغتال ما تبقى من بحر هذه المدينة وأفراحها. السابقون أبادوا، واللاحقون يجهزون على ما تبقى"[1]. وإثر كل هذه القيود والخلافات وجد السارد نفسه محصور بين مجتمع مادي وبين حبه للفن خاصة فن الكتابة، فقرر ترك الكتابة لأن الأوضاع لا تسمح له في الغوص داخل خيال خصب كان يوما يمتلكه، وأرجعته الأشياء المادية المحيطة به إلى خيال عقيم وجامد لا يستطيع حتى التعبير عن رأيه بكل حرية وأمان، فليس لديه الخيار سوى الصراخ في داخل أعماقه، فإن حدث وسمعه غيره يكون قد ارتكب جريمة شنعاء، سيعاقب عليها أشد عقاب.

كما نجد كذلك أن السارد يحمل أكثر من طاقته إذ يجب عليه مراعاة مريم والوقوف إلى جانبها، وأن يقف مع متاعب "أناطوليا"، وأن يتأمل خيبته مع مدينته التي تضيع يوما

[1]– الرواية، ص 196.

بعد يوم. فالكتابة بالنسبة إليه الباب الوحيد المفتوح أمامه، لكي يستطيع الهروب من كل هذه الضغوطات. وأصبح لكل ما يحيط به رائحة خاصة، كرائحة الموت والحزن والبكاء. حتى المدينة تنبعث منها رائحة الموت في كل مكان، وكأن شيء فيها انكسر بعدما سقط من علوّ شاهق.

بين أخذ و ردّ و عطاء في أعماق نفسية السارد وجد نفسه حائرا أمام سؤال كان يؤرقه وهو: "ما معنى الهوية في وطن ليس لك؟"[1]، بحث الكاتب كثيرا ولم يجد سوى بطاقة التعريف الوطنية الخضراء اللون بين يديه، و هي عبارة عن ورق مقوى لا أكثر، كيف للورق أن يثبت هوية الإنسان ويورثه إحساسا بالوطنية و هو في حدّ ذاته كيان ذو روح وعقل لا يمكن أن يحافظ على قيمته بين أقرانه من البشرية، ولا يمكن له كذلك أن يثبت هويته الشخصية، إذ كل الأشياء المحيطة به عبارة عن أشياء مادية لا أكثر ولا أُقل.

[1]– الرواية، ص 231.

الفصل الثاني: التعددية اللغوية ودلالات الصراع في الرواية

التعددية اللغوية ودلالات الصراع اللغوي :

تأتي لغة الرواية إلى الوجود "متعددة بتعدد شخصياتها وإيديولوجياتها، فالرواية ليس لها لغة واحدة يمكن دراستها لسانيا بالشكل المبسط المعهود، لأنها وحدة متماسكة تشمل عددا من اللغات وعددا من الأصوات والأساليب" [1].

يتبين لنا من القول السابق أن الرواية تحمل في طياتها عدّة لغات، ولكل لغة سماتها التي تميزها عن غيرها، فيتكون بذلك عمل أدبي مكتمل بالتعدد اللغوي الذي يحتويه داخل ثناياه. ومنه جاءت رواية "واسيني الأعرج" "سيدة المقام" التي نحن بصدد دراستها وتحليلها، محملة بميزة التعدد اللغوي. وذلك من أجل إيضاح وإيصال الفكرة إلى القارئ كما أبدعها الكاتب بروح إبداعية مثيرة وجاذب لنتباه القارئ. فتنوعت بذلك دلالات الصراع في الرواية بشكل محكم البناء وبطريقة فنية وأدبية جديدة .

سنتناول في هذا الفصل الثاني دراسة أنواع اللغة الواردة في الرواية، مع استبيان الدلالات التي تحملها كل لغة. ومن أجل هذا سنكشف الستار عن اللغة الآمرة ولغة المهمشين، فالكاتب في أي عمل إبداعي يجب قبل شروعه في البدء بأي مشروع فني ينبغي أن يرسم في ذهنه المشكلة الرئيسية التي ستدور عليها الأحداث، أو يضع قطب الصراع بين نصب عينيه، وذلك من أجل عملية الإبداع .

[1]–أوريدة عبود: حوارية اللغة في روايات عبد المالك مرتاض، أطروحة تكتوراه، 2013، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ص36 و37.

انطلاقا من كل هذا سنحاول الإجابة عن بعض الإشكاليات المصغرة التي ستساعدنا في للوصول لغايتنا التي هي استبيان مواطن التعدد اللغوي ودلالات صراعه في رواية "الأعرج".

فما هي الأطراف المشكلة للغة الآمرة ؟ أو من هي السلطات التي توجه الأوامر في الرواية ؟. ومن هي الفئة المهمشة في مجتمع الكاتب ؟ وما هو ردّت فعل هذه الفئة المستضعفة من قلة الاهتمام بهم وسوء معاملتهم ؟. كيف جاء دورهم في إظهار مكانتهم ووجودهم أمام السلطات الحاكمة والآمرة ؟.

المبحث الأول : اللغة الآمرة.

انطلاقا من الإشكالية سنتعرض في دراستنا إلى تحليل لغة الرواية من أجل الوصول إلى أهم السلطات التي يطغى صوتها في الأثر الأدبي "سيدة المقام"، إذ جاءت لغتها قوية وظاهرة للعيان، ويسهل للقارئ معرفة الأطراف التي تصدر منهم الأوامر .

فمن بين هذه السلطات التي سنعالج لغتها والتي وردة بشكل بارز في الرواية هي كل من السلطة الدينية والسلطة السياسية وأخيرا السلطة الاجتماعية.

1)- السلطة الدينية:

جاءت لغة الرواية بلغة مليئة بالقيم الدينية. لمعالجتها فترة العشرية السوداء (فترة الإرهاب)، التي مرة بها الجزائر. وكانت بسبب ظهور الطوائف الإسلامية المتعصبة والمتشددة في تطبيق الدين. فوردة بذلك لغتهم من بين اللغات الآمرة والقوية في "سيدة المقام"، وأي مخالف أو معارض لأوامرهم يكون مصيره الموت بدون أدنى شك ودون أي رحمة أو شفقة عليه أو على عائلته كبيرا كان أو رضيعا. إذ سرح الكاتب قائلا :" قالت لي تلك الصديقة الفخورة بلباس الجنة : لقد أنشأنا محكمة تعقد لإعدام الذين ارتدوا أو خرجوا عن تعاليم الدين، إما بالقتل المباشر، أو بنسف داره، أو اختطاف أبناءه وأهله حتى يسلم نفسه" [1].

من خلال المثال يتبين لنا أن السلطة الدينية لها وقعها الشديد على حياة المواطن الجزائري، بسبب فرضها لنفسها بمنطق القوة واستعمال السلاح، ولا مجال أبدا للتسامح أو التعبير عن أي رغبة كانت. فالفرد أمام خيارين لا ثالث له، فهو مجبر أن يمشي في طريق "حراس النوايا" أو الموت المؤكد.

"الكلام الآمر لا يتشخص، إنه فقط منقول فجموده واكتماله الدلالي، وانغلاقه، وتميزه الظاهر والمتعجرف، واستحالة وصول أسلبة حرة إليه. كل ذلك يقضي إمكانية التشخيص

[1]- الرواية، ص 195.

الأدبي للكلام الآمر. إن دوره في الرواية ضئيل. إنه لا يمكن أن يكون ثنائي الصوت بالدرجة الكبيرة، وهو يدخل ضمن عناصر الأبنية الهجينة" [1].

انطلاقا من قول "باختين"، الذي يقر وجود لغة آمرة (الكلام الآمر). فإن "واسيني" استعان بها وجسدها في روايته ليبين للقارئ مدى المعانات التي مرّ بها الشعب الجزائري في فترة التسعينات. فمن خلال مقولة "باختين" أيضا، فإن السلطة الدينية ذات صفة متعجرفة، وغير قابلة لأي نقاش معها. ولم تترك مجالا للمثقف لدفاع عن رأيه .

وفي موقف آخر نجد مقولة تقول: "الكلمة السلطوية تقتضي منا الاعتراف والاستيعاب، فهي مفروضة علينا بغض النظر عن درجة إقناعيتها الداخلية بالنسبة إلينا.. إنها كلمة معترف بها في الماضي، إنها كلمة موجودة مسبقا" [2].

هذا ما أورده الكاتب في رواية "سيدة المقام" إذ احتل "حراس النوايا" المدينة باستعمال القوة والعنف ففرضوا على المواطنين المشي في طريقهم غصبا عنهم، أو يخسروا أرواحهم. ومنه فإن بطلة الرواية "مريم" تعرضت إلى إصابة بالغة في رأسها عندما نزلت إلى المظاهرات العارمة التي وقعت يوم الجمعة الحزين في 7 أكتوبر 1988.

---

[1]–ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر،(ط–1)، القاهرة،1987، ص110.

[2]–ميخائيل باختين: الكلمة في الرواية، تر: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، (ط–1)، دمشق، سوريا، 1988، ص123.

عملت السلطة الدينية في الرواية على قمع الفئة المستضعفة في المجتمع الجزائري، كما نشرت الفوضى في كل مكان وفي كل زمان. وجعلت مجمل اهتمامها مركز على الفئة المثقفة، بشكل خاص. لأنهم يعرفون تمام المعرفة ويعون ما كان يحدث من خراب، وأن كل هذه الأحداث مفتعلة من أجل شيء واحد لا شيء سواه، هو الحصول على كرسي الحكم .

بسبب وعي المثقف على هذه الأمور حاصره "حراس النوايا"، فنجد الكاتب في رواية "سيدة المقام"، شخص مثقف وله مكانته في المجتمع، لكنه رغم ذلك وجد نفسه مكبلا من كل الأطراف، خاصة أنه يساند البطلة "مريم" التي هي راقصة باليه في بلد لا يعرف قيمة التحضر. "فالإنسان لا يستطيع أن يبدع بالتجاوز، بمعنى أن القهر هو حالة من الوعي تلازم الإبداع، لكنه ليس أبدا محرضا على الإبداع، والاعتبار أن كل إبداع هو دليل على تجاوز لحالة القهر" [1].

فقد أورد الكاتب في روايته طريقة معاملة "حراس النوايا" للفئة المثقفة، وذلك عندما قال:" اسمع السّي موح، ما سمعت السيارة كي وقفت ؟؟

– سمعنها .

– أجبت بتلقائية .

[1]– ماجد موريس: سيكولوجيا القهر والإبداع، دار الفرابي، (ط–1)، بيروت، 1999، ص19.

– لماذا لم تتوقف ؟

– ظننت أن الأمر لا يعنيني .

حاولت أن أواصل صعودي، حتى قبل أن أرى وجهه لكنه سحبني باتجاهه بقوة من تلابيبي التي مزق طرفا منها. التفت اتجاهه، بنوع من العنف. عرفته من وجهه الذي تغلب عليه بعض السمرة البدوية، بين قسماتها شيء من الخوف، تتدلى على خديه لحية كثيفة كادت تغطي وجهه بكامله، يلبس لباسا مدنيا. قميصا فضفاضا وقبعة أفغانية ذات لون كاكي. من عينيه عرفته أنه عضو من أعضاء "حراس النوايا" [1].

يتضح لنا من المثال أن اللغة التي استعملها الكاتب توحي بسيطرة فئة "حراس النوايا" على شوارع المدينة. إذ يدورون في الأزقة بين العامة أكثر مما تقوم به الشرطة رغم أنه عملها، ودورها حماية الشعب وحرصها على سلامته. لكن الظاهر هو عكس ذلك تماما، لأن رجال الجماعة المسلحة هم الذين يقومون باصطياد المواطنين الأبرياء، إذ يحملونهم تهم لم يذنبوا ويقوموا بها. لكن العجيب في الأمر لا يسمح بالضحية بالدفاع عن نفسه، فهو مجبر على الاعتراف بذنب لم يقترفه .

[1]– الرواية: ص 186 و187 .

2)- السلطة السياسية:

تقف هذه السلطة جنبا إلى جنب مع السلطة الدينية، ويظهر ذلك في الرواية التي بصدد دراستها، إذ تعتبر هاتين السلطتين وجهين لعملة ولحدة، فكلاهما تسعيان إلى الوصول للحكم بشتى الطرق وذلك على حساب المواطن. لأنه المتضرر الوحيد من هذه المواجهة بين الطرفين.

"يرجع فساد الأوضاع السياسية إلى سبب رئيسي هو فساد تربية الحاكم والمحكوم، حتى جهل الأول مسؤوليته تجاه الأمة، وغابت عن الثاني حقوقه على الحاكم. ولذلك اعتبر أن إصلاح التربية الإسلامية هو الطريق إلى إصلاح الأوضاع السياسية" [1].

عملت السلطة السياسية على مساندة "حراس النوايا" في نشر الخوف والهلع بين أوساط الشعب. لكي يفسح المجال أمامها لسرقة ونهب خيرات البلاد، فالمثقف هو الوحيد الذي كان يعي ماذا يحدث في البلاد. لكنه أجبر على السكوت مقابل الحفاظ على نفسه وأهله، فإما أن يكون في صف "بني كلبون" أو صف "حراس النوايا" أو ينسى تماما مهنته ككاتب. "فبني كلبون صنعوا الموت وجاؤوا بهذا الوباء، عندما سرقوا استقلال هذا الوطن

[1]- برهان غليون: الوعي الذاتي، المؤسسة العربية، بيروتّ، (ط-2)، 1992، ص67.

وملئوا المدن بالكذب والسرقات. ثم قالوا: المدينة بدون ثقافة سطوحها، ملئوا المكتبات بالمطبوعات التي تستعيد الخرافات" [1].

ويظهر كل هذا الفساد في الرواية من خلال اللغة الأدبية التي أبدع بها "واسيني" روايته، "فاللغة سواء نظرنا إليها من زاوية المتكلم أو من زاوية المخاطبة، فهي تعبر عن الفكرة" [2].

"لقد تأمل الروائي السلطة في هذه الفترة والفترات السابقة منذ الاستقلال، فوجدها رمزا للعنف وتشجيعا له، فاتخذوا لغة الرواية كوسيلة لصياغة هذا العنف والتعبير عنه. فتطرح الرواية الجزائرية المعاصرة مسألة العنف الذي شهدته الجزائر في التسعينات" [3].

أتت اللغة الآمرة واضحة من طرف السلطة السياسية، بسبب استعمالها للعنف في كل المجالات، فتأثر الكاتب بذلك إلى درجة أن كتب بلغة عنيفة وهي لغة ظاهرة لغوية سنتطرق إليها بالتفصيل في الفصل القادم .

ولكي يوصل الكاتب رسالته للقارئ، لجئ إلى استخدام ثلاث لغات وهي الفصحى والعامية، ومزج قليلا من اللغة الأجنبية (الفرنسية)، فجاءت اللغة الفصحى بنسبة أكبر والتي "تتميز بالجزالة والقوة، فهذا النمط اللغوي يوظف في المواقف التي تبدو فيها الذات

[1]– محمد الغموري: الرواية المغربية والتعبير الاجتماعي(دراسة سوسيو ثقافية)، إفريقيا الشرق، (د–ط)، 1991،ص28.
[2]– نبيلة إبراهيم: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، دار غريب، (د–ط)، مصر ،(د–ت)، ص203.
[3]– شريف حبيلة: الرواية والعنف، ص165.

الساردة في موقع استعلائي" [1]. و"حتى يكون الحوار أقرب إلى لغة الناس في تواصلهم اليومي، قد يلجأ الكاتب إلى الجمع بين اللغة العربية واللغة الأجنبية (الفرنسية)، ليشير ربما إلى الازدواجية اللغوية في الخطاب الجزائري اليومي" [2].

كمثال من الرواية على دمج عدة لغات نذكر قول الكاتب :

قالت للشرطة، اقتحام البيت معناه أني أصبحت تحت رحمتهم. قال لها الشرطي الذي كان ينام على كرسيه : Vous savez madame , vous n'êtes pas convaincante. On n'y peut-rien , c'est comme ça , à prendre ou à laisser .

وعندما حكت القصة لمدير المدرسة تأفف قليلا، ثم قال لها: صبيان لا يدركون مخاطر ألعابهم النارية. سنتصرف بحزم، وفي المرة الأخيرة عندما أصرّت على توقيع رسالة تضامن معها. جاءها المدير نفسه وهو يصرخ:

_ إنك تتسبّبين في فوضى كبيرة داخل المؤسسة. أنت مجرّد متعاونة وكفى .

Et si ça vous déplait , vous n'avers qu'à quitter le pays .

[1]- بتقة سليم: الريف في الرواية الجزائرية دراسة تحليلية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2010/2009، ص99.

[2]- المرجع نفسه، ص103.

Ce n’est pas à toi de me le dire. J’ai un contrat avec le ministère. c’est mou établissement .

بلا ربي ما راكي قاعدة دقيقة في هذه البلاد راح تشوفي وين توصل هذه المهزلة" [1].

ويتبين من خلال هذا المثال أن الكاتب أدمج بين هذه اللغات، لكي يبين نفوذ السلطة السياسية على المواطن المثقف، وتواطئها مع السلطة الدينية، ضد أناطوليا الروسية.

3)- السلطة الاجتماعية :

"وعي اللغة جزء من وعي المعرفة التي تبين وتشمل الرؤيا للذات الفردية والاجتماعية داخل هذا البناء الذي يؤسس إبداع الحياة" [2]. جاءت السلطة الاجتماعية لتقطع الأنفاس المتبقية من المثقف الجزائري، بعد أن غلقت جميع الأبواب في وجهه من طرف السلطات الأخرى .

تتمثل اللغة الآمرة في هذه السلطة الاجتماعية، في سيطرة العادات والتقاليد والأسرة على طريقة العيش، ويتجلى ذلك بشكل واضح في رواية "سيدة المقام" عند "مريم" البطلة. والتي كانت تمارس فن الرقص في مدينة غزاها الإسلاميون بتعصبهم وتشددهم في تطبيق

[1]- الرواية ص 41 و42.

[2]- دريد يحيى الخواجة: إشكالية الواقع والتحولات الجديدة في الرواية العربية(دراسة)، اتحاد كتاب العرب، (د-ط)، دمشق، 2000، ص139.

الشريعة الإسلامية .لكن رغم كل الصعاب فهي دافعت عن مهنتها إلى آخر نفس من حياتها. كما عانت كثيرا في حياتها، بدأ من سيطرة عمها "العباس" الذي انظم إلى الجماعة الإسلامية. فأهمل بيته وزوجته، حتى أنه أهمل صحته وكل ذلك من أجل المكوث في المسجد فترة زمنية طويلة. كما عانت من زواج فاشل بسبب تشبثها بمهنة الرقص .

لم يكتف العنف في تغلغله داخل السياسة والدين، وإنما تطور حتى وصل إلى المجتمع والأسرة فنجد في رواية قد اتخذت هذا العنف في عدة أشكال ونماذج، إذ أنها قدمت لنا صورة المرأة في المجتمع الجزائري في فترة العشرية السوداء. بعد مجيء "حراس النوايا" جعلوا من خصوصيات المرأة البقاء في البيت، وأي امرأة خارج من البيت فهي زانية ومرتكبة لمعصية كبيرة. إذ قال الكاتب:" قبل أيام أحرقوا منزل أرملة تعيش مع ابنها (بنت وولد)، وقبل أن تصل الشرطة كان الطفل قد تفحم. قيل إن سيارة مشبوهة كانت تزورها في الكثير من المساءات وهي امرأة مطلقة وعندما جاؤوا بالسيارة وسائقها وجدوه أحد إخوتها العشرة، الله يحفظ. عندما يتحكم "حراس النوايا" في المدينة سيحرقون الميت والحي فيها" [1].

هذا مثال عن سوء إصدار الحكم من طرف السلطة الاجتماعية، فراح فيها امرأة وابنيها ضحية لسوء الضن. "فتتوالى بذلك الحتميات الاجتماعية محددة طريقا واحدا للأزمة، فرؤيته

[1]– الرواية، ص 34.

تحديثية للعالم في صميم كل كتابة إبداعية تضوي هذه الرؤية على استنكار مظاهر الاستعباد والتخلف والقهر الاجتماعي كافة" [1].

وفي ظل كل هذه الصراعات اعتنق السارد (البطل) موقفا شبه محايد من الأوضاع التي آلت إليها المدينة، لقناعته بعدم الانتصار أمام هذه السلطات المسيطرة على كل شيء. "فالراوي لم يجرؤ على المواجهة لذا شعر بالاغتراب ورأى نفسه غريب في مدينة، لم تبقى مدينته إلى درجة تصعب مصالحتها" [2].

المدينة التي لم تصبح مدينة بل تحولت إلى مجرد صحراء "نبتت فيها الحلفاء، والأشواك تملأ تربتها التي بدأت تتصحر" [3]. يوما بعد يوم، وتمشي في طريق الهاوية وهي مغمضة العينين. والسبب في ذلك سوء التسيير في جهازها الإداري، وعدم تحضر شعبها، وتعصب طوائفها إلى درجة أن أصبح المواطن الجزائري يقتل أخاه دون أن يعي ماذا يفعل، رغم أن البلاد قد استقلت يوما وأخرجت العدو من أرضها، لكن اليوم عدو هذه الأمة هم أبنائها. أحفاد الشهداء الذين ضحوا بالنفس والنفيس لتعيش الأجيال القادمة في حرية وسلام .

[1]– رفيع صيداوي: الكتابة وخطاب الذات(حواره) مع روائيات عربيات، المركز الثقافي في العربي، (ط–1)، دار البيضاء، المغرب، 2005، ص21.

[2]– الشريف حبيلة : الرواية والعنف (دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة)، عالم الكتب الحديث، (ط–1) أربد، بغداد، 2010، ص62 و63.

[3]–عدنان بن ذريل: اللغة والأسلوب، دار مجدلاوي، (ط–2)، 2006، ص135.

جاءت اللغة الآمرة من طرف السلطة الاجتماعية في مواقف عدة من الرواية مثل قصة زواج "أم مريم" من أخ زوجها، رغم أنها غير مقتنعة تماما بهذه الفكرة إلاّ أن عادات القرية فرضت عليها هذا الزواج الذي عانت منه كثيرا .

كما نجد كذلك المضايقات التي كانت أناطوليا تتلقاها خلال فترة وجودها في المدينة، وذلك بسبب النظرة السلبية المنتشرة بين الشعب إلى فن الرقص، كما أن أناطوليا أجنبية وشيوعية لم تعتنق الإسلام.

المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات العربية له معتقداته الخاصة به، ونظرته الناقصة نحو التحضر والرقي. فكل ما يدعوا إلى التحرر من المعتقدات والخرافات السائدة يعتبر فسق، وخروجا عن الدين الإسلامي في نظر "حراس النوايا" .

جاء قانون المجتمع صارما على "مريم" و"البطل السارد" .لأنهما من بين الفئة القليلة المتعلمة. فكانت بذلك اللغة التي سرد بها الكاتب روايته "لغة تشير إلى فساد السلطة، أي سوء استخدام السلطة أو النفوذ العام، بهدف الانحراف عن غايته، وذلك لتحقيق المصالح الخاصة أو الذاتية بطريقة غير شرعية ودون وجه حق" [1].

[1]– مصطفى عبد الغني: قضايا الرواية العربية، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، (ط–1)، 1999، ص130.

المبحث الثاني: لغة المهمشين .

بين أخذ ورد، وصراع بين السلطات ذات النفوذ في المضمون الروائي "سيدة المقام" ودراسة اللغة الآمرة على مستوى الرواية نجد لغة المهمشين التي تقابلها في العمل الإبداعي "لواسيني الأعرج"، إذ ركز عليها الكاتب لأنها لغة البطل "الرجل الصغير" كونه مثقف وأستاذ جامعي، ولغة "مريم" راقصة باليه ومحبة للفن والانفتاح على الحضارة الغربية .

في ظل التناغم بين اللغات، نجدها متصارعة فيما بينها. إذ يسعى كل طرف للبقاء على حساب الآخر. فمنه سنعالج في هذا المبحث صراع المثقف مع السلطة، ونوع اللغة التي استعملها الكاتب، وفي الأخير نستعرض نتائج هذا الصراع في المعارضة وعواقبها.

1)- صراع المثقف مع السلطة :

كافح السارد "البطل" في الرواية بكل ما لديه من قوة. لكن لا نقصد من القوة أن البطل استعمل السلاح، بل استعمل قلمه وعقله في مواجهة العاصفة، التي تريد أن تمحو مكانة المثقف في المجتمع الجزائري، بالقوة التي كانت البلاد في أمس الحاجة إليها. بيد أن "حراس النوايا" وضعوه نصب أعينهم، إذ يجب التخلص منه لأنه واعي ومتعلم ويعمل في مكان جماعي يمكن أن يؤثر في الطلاب الذين يدرسهم، فيشكل خطر بالنسبة لهم (القادمون الجدد).

اللغة تحمل كلام آمر، كما تحمل كلام مقنع داخلي. وهذا الأخير عكس الأول "إذ يشتبك خلال استيعابه الايجابي اشتباكا وثيقا بكلامنا الخاص، وداخل تيار وعينا يكون الكلام المقنع الداخلي عادة كلامنا ونصفه أجنبي" [1]. أي "الكلمة المقنعة داخليا حين يستخدمها وعينا هي كلمة نصفها لنا ونصفها لغيرنا" [2].

تكمن مواجهة "البطل" للسلطة في مواقف متعددة من الرواية، وكل ذلك من أجل البقاء. رغم مكانة وحصانته كأستاذ جامعي، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من سوء المعاملة والتهميش من طرف السلطة الدينية، وخير مثال على ذلك عندما أتوا به إلى الكوميسارية وبهدلوه أشد بهدلت وفي الأخير خاطبه الرجل الملتحي قائلا :

" الطحان، شيوعي. خلصت(رشوت) البوليسي ولهذا أطلقوا سراحك !!

يا سيدي يرحم والديك اتركني وشأني .

نحن في مرحلة انتقالية. الدولة الإسلامية. إما أن ترجع للطريق المستقيم، وإما يطير رأسك. وأن يطير رأسك أفضل لنا ولك وللمجتمع .

يا أخي ما حدث لا يستحق هذه البهدلة" [3].

[1]– ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ص111.

[2]– ميخائيل باختين: الكلمة في الرواية، س127.

[3]– الرواية، ص191.

يوضح لنا هذا المثال يشكل واضح وجلي سوء معاملة المواطن المثقف في بلده، التي ليس له سواها. إذ يعمل كل متحضر على رفع مكانة وطنه الحبيبة في المحافل الدولية، فيجب السلطات أن تدعمه من كل الجوانب، لكن الأمر الذي يحدث في الواقع هو عكس ذلك تماما، إذ يصل بالقادمين الجدد بتهديده بصريح العبارة أنه سيقتل إن لم يتخلى عن أرائه وأفكاره لأنهم يعتبرونها خروجا عن الدين والسنة. فماذا عسا أن يفعل مواطن بسيط ؟ لا يملك سوى بعض الأوراق وقلم، يكتب به الوقائع بالأحداث الدامية التي تحدث أمامه، لكن تلك الكتابة في بعض المرات يكلف صاحبها الموت.

"الكلمة المقنعة داخليا دور حاسم في عملية التكوين الإيديولوجي للوعي الفردي" [1].

من خلال هذه المقولة نستخلص أن الشخص عندما يكتب ويعبر عن وعيه فإنه يدافع عن إيديولوجيته، إذ يرى "باختين أن الرواية لم تنشأ وتطور إلاّ في ضوء تعددية الصوت الإيديولوجي" [2].

تتجلى لغة المهمشين في الرواية من خلال المواجهة التي تحدث بين المثقف (البطل) وبين السلطة (الدينية_ السياسية_ الاجتماعية)، وإذا تمعنا ماليا بين أطراف المواجهة نجده غير متكافئ، لأن الصراع يحدث بين محور واحد من المجتمع ضد ثلاث محاور ذات قوة ونفوذ وسلطة أساسية ومتحكمة في شؤون الدولة والرعية .

[1]– ميخائيل باختين: الكلمة في الرواية، ص126.

[2]– حميد لحمداني: النقد الروائي والإيديولوجي، المركز الثقافي العربي ،(ط–1)، بيروت، 1990، ص 79.

تأتي لغة السارد محملة برموز وعبارات موحية، لتجنب استخدام اللغة المباشرة لأن ذلك سيؤدي إلى حذفه دون محالة. كما يظهر كذلك الصراع بين "مريم" والأطراف الحاكمة، "فمريم" المرأة الضعيفة والمصابة برصاصة في الدماغ، حاربت بكل ما لديها من قوة وإرادة لإيصال فنها إلى مراتب عالمية، وساعدتها "أناطوليا" في ذلك. لكن الحرب لم تكن متكافئة الأطراف، فضحت بحياتها من أجل أن ترقص لأستاذها الرقصة الأخيرة "شهرزاد"، وهذه الرقصة بالتحديد تبين صراع العبد الضعيف ضد الحاكم القوي. رغم انتصار "شهرزاد" في المسرحية إلاّ أن "مريم" في الواقع لم تنجح في ذلك، لأن الحركة العنيفة التي قامت بها أثناء أدائها للعرض الأخير، جعل الرصاصة تتحرك في دماغها فمزقت شرايينها.

خصص الكاتب الفصل الأخير من الرواية الذي عنونه ب"نهاية المطاف"، للحديث عن مدى صمود البطلين أمام المصائب التي واجهتهما في طريقهما، لكن في الأخير أودت بحياة "مريم"، فيم لم يعبر الكاتب بصريح العبارة عن مصير البطل "الرجل الصغير" إذ لمح بأنه مقدم على الانتحار، فترك النهاية مفتوحة أمام القارئ ليؤولها كما يريد .

يرجع عدم إعطاء الكاتب اسم لبطله، واكتفى بإعطائنا مهمته كأستاذ جامعي في الفن الكلاسيكي، لان العشرية السوداء التي مرت بها الجزائر أودت بالكثير من رجال الثقافة والفن. فالبعض منهم أجبرهم الوقت على مغادرة البلاد من اجل التمسك برأيهم وأيديولوجيتهم وحقهم في التعبير. فيما أجبر البعض الآخر على ترك مهنته كفنان، وترك

الورق والقلم على جهة، والانشغال بهموم الحياة الصعبة من أجل كسب قوت يومه له ولعائلاته.

2)- لغة التمرّد عند الكاتب :

بما أن السارد في حالة صراع مع السلطة، فإنه بالضرورة سيواجه ويتمرد بشتى الطرق والوسائل، ومن بين هذه الوسائل الكتابة. التي بقيت السلاح الوحيد في يده. فجاءت بذلك لغته "متنوعة الملفوظ بصورة عامة، طبيعي في المجتمع، إنه ينشأ بتلقائية من التنوع والإخلاف الاجتماعيين ولكن بما أن التنوع الاجتماعي يقيد ويكبح بواسطة القواعد والأحكام التي تفرضها الدولة فإن تنوع الخطابات واختلافها يحارب بالطموح، الملازم لكل سلطة، إلى تأسيس لغة اعتيادية عامة (أو بالأحرى بتأسيس كلام)" [1].

كون السارد أستاذ جامعي، ومتمكن من اللغة الفصحى، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من استعمال اللغة العامية في مواطن عدّة من الرواية، إذ سنحت له العامية في إخراج كل ما يضايقه بطريقة تلقائية، فتمرد بها على السلطة وعلى القادمين الجدد. ومن كثرة الهموم والأحزان، قال: " آه يا عمي موح وين نواحك وين اشتقنا إلى أناشيدك المضخمة برذاذ المساء يا موجة المسكين :

القلب راه حزين

[1]- تزيفيتان تودوروف: ميخائيل باختين: المبدأ الحواري، تر: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (ط-2)، 1996، ص116.

في الشدة واللين

داخلك اليوم

يا موجة العاشق" [1].

عبر الكاتب باللغة العامية عن انزعاجه وتأسفه على الأوضاع المزرية التي وصلت إليها المدينة، فكتب تارة بلغة رومانسية عذبة وذلك عندما يتحدث عن "مريم"، وتارة بلغة عنيفة يشتم فيها الأطراف التي سببت الفوضى في المدينة، كما زرعت الأنغام في كل مكان بين أبناء الشعب الواحد، فكل واحد يحارب من أجل البقاء ولو على حساب أناس أبرياء.

فجاءت بذلك "وظيفة اللغة المدركة تقليديا في الثقافة الغربية، تتعلق بالتعبير أو الانفعال، حيث تكمن الأشياء المعبر عنها في المشاعر والعواطف، والانفعالات التي عادة ما تصدر عن فرد أو أحيانا عن إثنية برمتها" [2].

"فكانت الاختلافات اللغوية تعبر أساسا عن اختلافات نفسية، هذا لأن الشخصيات الروائية تنتمي في كل الأحوال إلى عالم اجتماعي متجانس نسبيا" [3]. بتعدد الشخصيات تعددت الأصوات في الرواية فهناك مؤيد ومعارض، "البطل" أيد "مريم" في أفكارها وكفاحها ضد "حراس النوايا" وضد السلطات التي تحفز على نشر التوتر في المدينة.

---

[1]– الرواية، ص47.

[2]– جون جوزيف: اللغة والهوية، ص20.

[3]– فيليب دوفور: فكر اللغة الروائي، تر: هدى مقنص، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (ط–1)، 2011. ص190.

وقد عبر الكاتب في الرواية عن موقف "مريم" ضد مدير المسرح الوطني، إذ أرادوا جعله كملجأ لمتضرري الزلزال الذي ضرب المدينة. في الجانب الظاهر للشعب فإن السلطة الدينية تفكر في مصلحة الجميع ولديها روح إنسانية، لكن نيتها الحقيقية هي غلق المسرح. لمنع طلاب الفن من مواصلة دراستهم، خاصة طلاب فن الرقص. إذ يعتبرونه خروج عن الدين، ويسيء إلى الأخلاق العام الشباب وكل أفراد المجتمع .

لكن "مريم" تصدت لما كان يحدث، وعبرت هي وزملاؤها بإقامة احتجاجات ومظاهرات عارمة أمام مركز البلدية منددين ومعترضين عن تحويل مركز من مراكز الثقافة إلى ملجئ للمنكوبين .

ولكي يوصل الكاتب رفضه للأوضاع السائدة، اختار أن يعبر عن ذلك بلغة مقنعة تدخل إلى القلب دون استئذان ويكون لها أذن صاغية، "فالبنية المعنوية للكلمة المقنعة داخليا ليست مكتملة بل مفتوحة، وهي قادرة في كل سياق جديد يبعث فيها الحوارية أن تكشف باستمرار عن إمكانات معنوية جديدة" [1]. وهي "عبارة عن كلمة معاصرة، كلمة مولودة في منطقة التماس مع عصر غير مكتمل أو كلمة معصرنة" [2].

[1]– ميخائيل باختين: الكلمة في الرواية، ص 127.

[2]– المرجع نفسه، ص 128.

3)- المعارضة السياسية وعاقبتها :

"الأدب ما هو إلاّ نتاج حيّ لواقع معين وانعكاس صادق لقضايا المجتمع محدد، يتفاعل بعمق مع هموم وطموحات الجماهير فيتأثر ويساهم في التأثير. فالأديب هو ابن بيئته، أقدر الناس على احتضان الواقع بأفراحه وأقراحه وعلى الالتحاق الدائم بالجماهير، وهي تكد وتكدح، تعاني وتقاوم في سعيها الدءوب لبناء الغد المشرق والمنير" [1].

رغم كل المعانات التي مرّ بها السارد "البطل" و"مريم"، ورغم المعارضة والتمرد إلاّ أن الخصم كان قويّا، وذا نفوذ أوسع من البطلين. جاءت لغة الرواية في فصولها الأخيرة، بنبرة مليئة بالحزن والأسى على البلاد والمدينة التي أطفئت أضوائها في الساعات الأولى من انتشار الظلام "مدينتنا سرقت مثلما تسرق النجوم، أصبحت قديمة وعتيقة كأنها ميت يخرج من تحت الأرض" [2].

دفع البطلان ثمن غاليا بسبب معارضتها للسلطة الدينية والسياسية معا. وفقدا الأمل حتى في العيش بسلام، في مدينة لم تصبح مدينة بل أصبحت مجرد ريف كبير تعمه الفوضى، ويكثر فيه النهب والنصب وحتى الدماء، صار مظهر ينام ويستيقظ عليه المواطن الجزائري، وذلك بفعل المرحلة الانتقالية التي تعيشها البلاد، لكن رغم كل هذا فالمواطن

[1]- بلقاسم بن عبد الله: دراسات في الأدب والثورة، دار هومة، (ط-1)، 2001، ص162.

[2]- الرواية، ص31.

الفقير والمغلوب على أمره هو وحده من دفع الثمن باهظا. لأنه لا من سلطة تحميه ولا من مال ينقذه ويسافر به خارج الحرب الأهلية في وطنه .

فبقي يتفرج على أفراد أسرته كي يذبحون، حتى الرضيع في المهد لم يرحموه، لأن "حراس النوايا" فرضوا أنفسهم بالقوة رغم أن "تصدير أية إيديولوجية أو تقنية هو شيء يستحق الإدانة بمجرد فرضه عن طريق الأسلحة ، ولكن ذلك لا يبرر فرضها على الآخرين، بل إن فرض المرء إرادته على الآخر علاوة على ذلك يعني أنه لا يعترف له بالإنسانية وهو ما يعتبره بالتحديد سمة لحاضرة أدنى" [1].

كان السارد في الرواية من بين المثقفين المهمشين في البلاد، خاصة في فترة التسعينات لكن رغم ذلك حاول أن يفرض منطقه في الحياة، وكتب "بالكلام المقنع الذي يدخل إلى القلب بالحسنى، كما أنه يناقض الكلام الآمر الذي تستخدمه السلطات" [2].

بهذا تكون الرواية قد كتبت بتعدد لغوي ظاهر، وتجسد ذلك في الصراع القائم بين الطرف الحاكم والطرف المحكوم. فيرى "باختين" "أن الرواية لم تنشأ ولم تطور إلاّ في ضوء تعددية الصوت الإيديولوجي " ويضيف "الرواية لا يمكنها أن توجد إلاّ في خضم تعددية الأصوات وتعددية اللغات، وأسلوب الروائي بسبب هذه التعددية يفقد صفته الفردية ولا يصبح إطلاقا

[1]– ترقيتان تودوروف: فتح أمريكا مسألة أخرى، تر: السباعي، دار العالم الثالث، (ط–2)، القاهرة، 2003 ،ص 202.

[2]– ينظر إلى: إيمان مليكي: الحوار في الرواية الجزائرية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2013/2012، ص201.

دالا على صاحبه" [1]. تأسف الكاتب كان واضحا من نتيجة هذه المواجهة غير متكافئة القوى، لأن عواقبها كانت وخيمة نزلت على رأس البطل دفعت واحدة. إذ فقد حبيبته "مريم"، وفقد مدينته الجميلة .

فقال : من كل جهة جاك الماشي

نحف الريف جاب غاشي

وين القفاطين والمجبود

عاد طراز لحرير مفقود

ويتهم خرازين الجلود

قالوا لي يا سامعين" [2].

[1]– حميد لحمداني : النقد الروائي والإيديولوجي، ص79 و80.

[2]– الرواية، ص174.

الفصل الثالث: تأصيل الهوية

آليات تشكيل الهوية في الرواية:

"اللغة نظام تأويلي قابل للمشاركة ومفترض من خلال اللفظ الفردي"[1]. فإذا كان للفرد حرية في الكلام والتأويل فإن للراوي كل الخيارات مفتوحة أمامه ليبدع ويطلق العنان لفكره ووعيه للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره. كما تساعد اللغة على تجسيد شخصية الكاتب وتعبر عن انتمائه الإيديولوجي، كما تكشف عن هويته.

تعتبر الرواية الجنس الأدبي القادر على توصيل رسالة الكاتب إلى القارئ، باللغة الفنية التي يستعملها فتحمل داخل طياتها معالم هوية المبدع. هذا الأخير الذي يتفنن بشتى الطرق والوسائل اللغوية، ليسمو بعمله الأدبي إلى أعلى المراكز.

جاءت رواية "سيدة المقام" "لواسيني الأعرج" كعمل فريد من نوعه، لاحتوائه على ظواهر لغوية متعددة تخدم موضوع الرواية بشكل عام.

أدمج "واسيني" ظواهر لغوية تسمح للقارئ باكتشاف آليات تأصيل الهوية الجزائرية من المنظور الفني، فيما يخص تلك الفترة الزمنية التي مرت بها الجزائر.

من بين هذه الظواهر اللغوية نجد استراتيجية الانفتاح على شتى الأعمال الأدبية وغير الأدبية، ويكون ذلك عبر عملية التناص. فما هو التناص ؟ وما مدى إسهامه في إثراء العمل الروائي ؟

[1]–عبد الوهاب تزو: سوسيولوجية اللغة، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، (ط–1)، 1996، ص14.

كما نجد ظاهرة أخرى استعان بها الكاتب لكي يؤصل بها هويته وهي ظاهرة عنف اللغة. فهل استطاع "واسيني" إتقان هذه الميزة اللغوية الجديدة في عمله الروائي ؟

أدرج كذلك آلية أخرى تتمثل في نقد المحرم، والتي تحرر فيها بشكل كبير من كل القيود التي كانت تكبل المبدع، فماذا نقصد بالنقد المحرم ؟

دون أن ننسى كل من ظاهرتي التهجين والتعدد الصوتي، اللتان تعتبران من أكثر الظواهر اللغوية رواجا واستعمالا في العصر الحديث. فهل استطاع "واسيني" استخدام الظاهرتين بطريقة جيدة تخدم موضوعه الروائي ؟.

1)- استراتيجية الانفتاح(البعد التناصي):

"تعمل إستراتيجية الانفتاح على النصوص المتنوعة، بإثراء النص الروائي. وتتجسد هذه الظاهرة في التداخل أو التفاعل النصي(التناص)، والذي يعتبر مظهرا من أبرز مظاهر الرواية المعاصرة. وللتناص علاقة وطيدة وقوية بالخطاب الروائي أكثر من علاقته باللغة الروائي"[1].

[1]- تزيفيتان تودوروف: ميخائيل باختين (المبدأ الحواري)، تر: فخري صالح، ص130.

أما فيما يخص ماهية التناص فهناك عدة تعريفات، ومن بينها نجد التعريف الذي يقول بأن "التناص هو الحضور الفعلي لنص في نص آخر"[1]. وتعتبر "جوليا كريستيفا" من الأوائل التي وضعت هذه التسمية وأرست قواعده .

بما أن "التناص هو عبارة عن تداخل النصوص في بعضها البعض"[2]، نجد أن رواية "سيّدة المقام" تتضمن في طياتها هذه "الظاهرة اللغوية التي تتيح الانفتاح على مختلف الأعمال الأدبية من خلال مظاهر ثلاثة وهي: الاستشهاد والسرقة الأدبية والإيحاء"[3].

نذكر بعض الأمثلة الواردة عن التناص في الرواية، كحديث الكاتب عن "شهرزاد" كمسرحية، لكنها عبارة عن حكاية مستوحاة من التراث، وبالتحديد من العصر العباسي، والتي تعبر عن مقاومة المرأة الشرقية لطغيان الحاكم "شهريار". هذا فيما يخص الموضوع عامة، لكن فيما يخص جزئيات التناص فهي تكمن كيفية تقسيم الكاتب لروايته إلى فصول وكل فصل له عنوانه وله حكايته، فنجد هنا أن "واسيني" اطلع على " نص عربي مرجعي هو ألف ليلة وليلة المقسم إلى أجزاء ولكل جزء متنه الروائي، لكن في نفس الوقت ليس منقطع عن ما سبقه ومتصل بما يلحقه " [4].

---

[1]– المرجع نفسه، ص120.

[2]– سليمة عذاوري: الرواية والتاريخ (دراسة في العلاقات النصية، رواية العّلامة لبن سالم حميش نموذجا)، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، الجزائر، 15-04-2006، ص47.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]– سليمة عذاوري: شعرية التناص في الرواية العربية (الرواية والتاريخ)، رؤية، القاهرة، (ط-1)، 2012، ص116.

فنجد "مريم" بطلة روايتنا، تقاوم الريح الساخنة التي ضربت مدينتها وموطنها. فعملت على صدّ قوى الشر التي تريد تحطيم مجتمعها. كما دافعت عن فنها وإيمانها بالرقص إلى درجة إهمال صحتها على حساب فنها النبيل ورسالتها في الحياة.

"لقد تعددت طرائق الروائيين في توظيف ألف ليلة وليلة، لكن "واسيني" اختار تضمين روايته حكاية من حكاياتها "[1]. إذ جسد لنا مقاومة " شهرزاد " في الرواية عندما أدت "مريم" الدور الرئيسي في المسرحية، وقد وردة في الفصل المعنون "بالجنون العظيم" في الرواية. وكمثال على تأزم الأوضاع نجد قول الكاتب:" يصعد اللّهب إلى أنفها وتقسم لشهريار أنه لم يلمسها، لم يحرق جسدها بأصابعه. يعاود شهريار الكرّة يمّد يده إلى صدرها المجروح يحاول أن يلمسها. أن يحرك قلبها. لكنها تصّر على الحكاية " [2]. ويضيف قائلا: قال لها، رأيتك يا بنت الحرام !! رجته ثانية قال لها: عبدك جامعك. رأسه ورأسك للكلاب. الثالثة.. الرابعة.. الخامسة.. يغيب العدّ بين تجاويف اللّحظة الحرجة. كان العصر العباسي يتبجح بعنفوانه. يزداد تأنقا وكآبة. تتكسر الأعلام البيضاء وتعوّض بأعلام خضراء داكنة، قادمة من أعماق الظّلام "[3].

[1]– محمد رياض وتار: توظيف التراث في الروية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د–ط)، 2002،ص25.

[2]– الرواية، ص 143 .

[3]– الرواية، الصفحة نفسها.

بما أن "النص سيكون ذات موحدة مستقلة، لكنه قائم على سلسة من العلاقات بالنصوص الأخرى سواء تم ذلك بالحوار أو بالتعدد، أو بالتداخل أو الامتصاص"[1]. فهو ينتج لنا عمل روائي كامل، كونه نص جديد وحديث الولادة، ولكنه يحمل في نفس الوقت سمات قديمة. ورثها من النصوص السابقة له بأي صيغة كانت، إما مباشرة أو غير مباشرة.

من "أنواع التناص نجد التناص الأسلوبي والأدبي والتاريخي والشعري، والديني"[2] الوارد بشكل كبير في الرواية، وذلك عند حديث الكاتب عن القادمين الجدد، وهم مشبعين بقيم دينية، فجاءت خطاباتهم محملة بصيغ دينية كثيرة، كقولهم:" يا حرمة.. عظامك جهنم. ثم غمّ رأسه وخرج مسرعا وهو يصرخ ويدفع كولومبو، وصاحب المحل. راح تشوفوا...وحق النبي والصحابة، نعلقكم من رجليكم يا أولاد الحرام "[3].

في هذا المثل نجد الرجل الملتحي يهدد البطلة والأستاذ بنار جهنم، لأنهما وقفا في وجهه، وكانت "مريم" بين الرجال في الحانة. كما أقسم بالنبي والصحابة بأنه سيطبق عليهم الحد، بالقتل شنقا لكن ليس من الرأس بل من الرجلين. وهذا ليس إلاّ مثال عن استعمال الدين كحجة في يدّ "حراس النوايا " ليصلوا إلى تحقيق مآربهم .

[1]– مصطفى السعدني: كتب الأدب والنقد في التناص الشعري، مطبعة الجلال، الإسكندرية، 2005، ص92.

[2]– سليم بتقه: الريف في الرواية الجزائرية، ص158.

[3]– الرواية، ص 27.

أما عن تسمية الكاتب "لبني كلبون" فما هو إلاّ تناص أسلوبي مستوحى من عنوان رواية "نجيب محفوظ" "اللص والكلاب"، وهو يقصد باللص في الرواية بالبطل الذي خرج من السجن ووجد زوجته قد تحالفت مع أقرب أصدقائه ضده، بعد أن طلقها غصبا عنه بسبب دخوله السجن. وعندما خرج قرر الانتقام من كل الناس الذين تركوه في وقت الحاجة، لكنه كلما أراد قتل أحدهم يصيب شخص بريء، حتى أصبح مجرما من الدرجة الأولى، فبدأت السلطات تطارده حتى استسلم في النهاية للكلاب المسعورة. فكانت قصة "مريم" شبيهة به إذ كافحت من أجل البقاء. والحفاظ على مهنتها في الرقص حتى آخر نفس من حياتها.

كما نلاحظ كذلك طغيان اللغة الشعرية الدارجة (أي التناص الشعري)، المستوحاة من التراث الفلكلوري الجزائري. وخير مثال على ذلك الأبيات الشعرية التي ضمنها الكاتب في روايته في مواضع متعددة وأهما الأسطر الأخيرة في الرواية " للشيخ غفّور " قائلا:

" أنا مجفاك كويتيني

آولفي مريم،

كيف الحال يا الباهية..

كيف الحال يا الباهية..

كيف الحال ؟!.." [1].

استعمل الكاتب في رواية "سيدة المقام" التناص التاريخي، عندما تحدث عن أحداث أكتوبر 1988 خاصة، وأحداث العشرية السوداء عامة، في فترة التسعينات والتي راح فيها مواطنون أبرياء.

كما ورد التناص عندما أدرج الكاتب "عناوين كتب روائية، ولوحات رسم لأشهر الرّسامين مثل حديثه عن لوحة "لمحمد خدّه" ولوحة "سلفادور دالي"، كما أدرج أسماء لملحنين وموسيقيين كبار مثل : "مزار"، و"رمسكي كورساكوف"، وأورد سيرة "فاطمة أيت عمروش" فمزجها بسانفونية "إيقربوشن" ..الخ. كل هذا يعتبر تناص لأنه تداخل فنون متنوعة على النص الروائي" [2] الذي كتبه الأعرج.

لقد سمحت هذه الآلية أي آلية التناص في استبيان هوية الكاتب، في مواقف مختلف من عمله الروائي، كما ساهمت في وضع بعض الأسس التي تساعد الفرد في اكتشاف حقيقته مهما كانت .

2)- عنف اللغة:

"عند البحث في لغة النصوص الروائية موضوع دراسة، فيلاحظ أن العنف يغلب عليها، كلمات تحمل معاني القتل والألم والمعاناة والصراخ والهلع والعويل من شأنها

[1]- الرواية، ص240.

[2]- سليمة عذاوري: شعرية التناص في الرواية العربية، ص116.

أن توصل إلى المتلقي الإحساس بالبشاعة والنفور مما يحدث من عنف، ومن الطبيعي أن تتناسب مفردات اللغة المستخدمة مع طبيعة الموضوع والأحداث، فليس من المعقول أن تتطرق الرواية لأحداث قتل وإرهاب وتأتي لغة النص لغة رومانسية وحالمة"[1]. ومنه نصل إلى القول بأن من الظواهر اللغوية، التي تساهم في استبيان شخصية وقوة الكاتب، استعماله للغة العنف. وهي كذلك تبين مدى تأثر الراوي بالمحيط الذي يعيش فيه .

تتمثل " اللغة في جسم قبل أن تكون ممارسة، إنها جسم من الأصوات، وهناك عنف في كل صرخة خوف" [2].

تكمن بؤرة العنف في الرواية، في الأحداث الدامية التي وقعت في الجزائر خلال فترة التسعينات. حيث حدثت اشتباكات بين عناصر إرهابية وعناصر الأمن، فكان المتضرر الكبير من هذه الاشتباكات، هو المواطن الفقير الضعيف خاصة الشيوخ والنساء والأطفال.

وردة لغة الكاتب مليئة بالعنف والسخط على هذه الأوضاع، إذ صرّح قائلا: "الطفل يضرب بالحجارة. الكبير يصرخ:« استري روحك يا امرأة »!! المراهق يعاكس ببدائية كبيرة "، ويضيف كذلك: " عودي إلى بلادك أيتها الشيوعية القذرة. "[1]

[1]– سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، دار الفراشة، الكويت ،(ط–1)، 2010 ص99.

[2]– جان جاك لوسركل: عنف اللغة، تر: محمد بدوي، دار العربية للعلوم، بيروت، (ط–1)، 2005، ص399.

تعود جذور العنف في الجزائر إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، إذ سبب الفقر والعوز والبطالة في انفجار العنف" [2]. كما نجد "القمع السلطوي الذي كان له دور بارز في العنف وفي تحفيز الإرهاب على الظهور، بالإضافة إلى العوامل النفسية والتنشئة الاجتماعية السيئة" [3]. وكذلك الحرمان الذي "يعاني منه الشعب، عكس الغنى والثراء الفاحش لدى مسئولي الدولة، فكل هذه الظروف ستشكل الحقد والكراهية لدى الفئة المغلوبة على أمرها ولا أمل لهم إلاّ اللجوء إلى الله، وقد يتخذ العنف وسيلة لأحذ حقهم"[4].

بسبب الأخذ والرد الكثير، والمشاكل المتراكمة في كل الميادين الاجتماعية في الجزائر، وجد "المثقف الجزائري نفسه مجبورا في أن يكتب بلغة سلسة وغير مليئة بالأشواك، فهرب إلى لغة تخيلية/رمزية. ليعبر بها عن الفساد الذي يحاصره من كل الاتجاهات، فركز على ذلك في مجمل الرواية، وبسبب فساد السلطة فسد المجتمع وتدهورت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية" [5].

كمثال من الرواية عن درجة الفساد التي وصل إليها المجتمع، نجد تصريح الطبيب الفلسطيني، بقوله: "سأقدم شهادتي أمام لجنة حقوق الإنسان واللجنة المضادة للتعذيب،

---

[1]– الرواية، ص40 و 41.

[2]– سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية، ص30.

[3]– المرجع نفسه، ص35.

[4]– المرجع نفسه، ص30.

[5]–الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص183.

سأقول استعملوا الرصاص الانفجاري. إنّهم منعونا من تسليم الجثث لذويها. وإنّهم أجبرونا على كتابة الأسماء على توابيت محشوة بالقطن والمفاصل الممزّقة، لأناس مجهولين".[1] في هذا المقطع نجد "اللغة تلعب في المستوى الدلالي لعبة التخفي، حيث تتهم ضمنيا السلطة، بأسلوب عنيف لكن بعيد عن المباشرة التي تسقط في التقريرية، الغير المقنعة. واستطاعت اللغة أن توهم القارئ بواقعية الحدث، وقد تقنعه بالموقف الضمني المتهم للسلطة"[2].

أضاف الكاتب أيضاً: "من القبعة الأفغانية ونعال بومنتل والقشابية والمعطف الأمريكي من فوق، ونفي العصر والحضارة من ذاكرة النّاس. نتشمّمهم من بعيد، فنغير المعابر والطرقات. رائحة عطورهم القاسية والعنيفة تسبقهم. عطر يشبه في قوّته العطر الذّي يسكب على جثث الأموات"[3]. هنا "تتحول عناصر: القبعة الأفغانية، نعال بومنتل، المعطف الأمريكي...التي ركبت منها الصورة إلى دلالات العنف، وتستبق ما ينجزه أفراد الجماعة الإرهابية، فيعبر الكاتب عن ذلك بلغته الخاصة التي لا يفهم دلالاتها ورموزها الحقيقية إلاّ هو نفسه. كما يعبر في هذا القول عن محاولة حراس النوايا بإلغاء كل معالم الحضارة وأي شيء له علاقة بالغرب"[4].

---

[1]- الرواية، ص37.

[2]-الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص197.

[3]- الرواية، ص12.

[4]- الشريف حبيلة: الرواية والعنف، ص235.

تعتبر ظاهرة عنف اللغة ظاهرة جديدة في الأعمال الروائية العربية، وبما أن "واسيني" معروف بثقافته الواسعة، واطلاعه الكبير على الآثار الفنية المختلفة. عرف كيف ينسج أعمال روائية متفتحة على كل الصيغ الجديدة في فن الكتابة، كماعمل على ترويض اللغة لخدمة هدفه الأسمى في الرواية، وهو إثبات شخصيته وهويته في الفترة التي عزل فيها المثقف الجزائر ومنع من الكلام بشتى الطرق وأبشع الوسائل كالقتل والنفي والسجن.

ورد عنف اللغة في الرواية كميزة بارزة، استعملها الكاتب في روايته ليترجم للقارئ مدى معانات المواطن الجزائري في تلك الفترة، وكم عانى من أجل الحفاظ على هويته، التي يريد القادمين الجدد محوها، فجاءت بذلك اللغة الفنية كنوع من السلاح، استخدمه المثقف ليافع عن كيانه ووجوده، بدلا من الرصاص، ولأن اللغة إذا عرفت كيفية تستخدم في مكان ما وزمان ما، كانت بذلك أقوى من أي سلاح. لأنها تدخل قلب كل قارئ وسامع لكلماتها فتأثر فيه، وتدفع به إلى إنجاز المستحيل .

عرف "واسيني الأعرج" كيف يستغل عنف اللغة لصالح خدمة موضوعه الروائي، ويحقق بذلك نشر نظرته الإيديولوجية، كما أتقن وضع أسس متينة لبناء شخصيته القوية وهويته الخاصة.

"اللغة هي مصدر الألم، ليس بشكل مباشر.. وإنما من خلال العنف الذي توقعه تلك الأصوات" "حيث نرى عنف اللغة مخبوءا تحت الكلمات المعسولة، ونرى مقطوعة بريئة المظهر تشبه أهازيج الأطفال، تصبح وسيلة لإيقاع الألم الحاد " [1].

3)- نقد محرم:

تتضمن الروايات العربية عامة، والجزائرية خاصة. موضوعات جدّ حساسة وهي مستقاة من الواقع المعاش، فنجد فيها هيمنة الثالوث الرئيسي في ضبط قيم المجتمع (تذكر بصفة خاصة في كل عمل أدبي). كما تحضا باهتمام الكاتب، وتسهم في إضاءة المناطق الحساسة التي تتمثل في الجنس الدين السلطة، وتعمل هذه الأخيرة على تسييجها وإيهام الناس بأنها في حرز مصون، تخضع دوما للتقليد والتعاليم الموروثة، وتستجيب لمقتضيات الأخلاق الجماعية والممارسات المنوالية[2].

ذكر واسيني الأعرج الثالوث بشكل صريح وبلغة فنية موحية بعيدة عن التقريرية، وهذا بفضل استعانته بالميزة السابقة التي تتمثل في عنف اللغة، إذ سنحت له بالتعبير، وبكل صراحة عن أشياء هي في حقيقة محرمة كل التحريم، في تلك الفترة السوداء التي عاشتها الجزائر، ووصلت درجة تحريمها إلى حد منع المواطن مجرد التفكير فيها،

[1]- جان جاك لوسركل: عنف اللغة، ص403 و406.

[2]- محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، دار الصدى، (ط-1)، دبي، ماي2011، ص57.

وكان "حراس النوايا" يحكمون على الشخص على حسب نيته، ولا يبحثون حتى عن مدى صحة حكمهم، كما لا يتركون أية فرصة أمام الضحية ليبرر أو يفسر نيته.

تناول الراوي جسد المرأة بجرأة كبيرة، فوصف ملامح "مريم" راقصة الباليه بكل دقة. كما ذكر لنا العلاقة التي تربط بين الرجل والمرأة في مواضع عديدة من الرواية.

أورد في فصل "محنة الاغتصاب" ذكر أشياء محرمة، وهي من أكثر الفصول التي عني بذكر الجنس، بشكل كبير إذ قال: " بعد الحاثة الشنيعة التي سرقت منّي بكارتي بقوّة حيوانيّة طاغية، عرفت أنّ الجارات الخبيرات، عرفن بأنّ الدّم، ليس دم الزّفاف والبكارة، ولكنه دم رجل أخفق في ثقب زوجته. تذكّرت كلام فقيه قريتنا وهو يصرخ في وجهي وفي قفاي. روحي الله يلقّيها لك. روحي راح يجي اللّي يثقبك كي الشكارة. الله لا يردك "[1]. وأضاف:" شفت اللي يخبي الأفعى واش يصير له ؟! مادمت مثقوبة وتخافين من الفضيحة لماذا تزوّجتني ؟؟...رغم صراخي، لم أشعر براحة ما. خفت أن أنام، فيغتصبني بشكل مشروع "[2]. هذا ليس سوى عينة قليلة جدا مقارنة بما ورد عن المرأة واحتقار الجنس القوي لها.

كما تحدث الراوي عن الدين، وكيف أصبح وسيلة في يد " حراس النوايا " من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية. على حساب الشعب الضعيف، ووصلت أعمالهم الشنيعة

[1]- الرواية، ص90.

[2]- الرواية، ص 94 و95.

إلى درجة قمع الجسد ومحاربة الغرائز والمشاعر عند العشاق، بحجة تحريم الدين لأي علاقة خارجة عن الحكم الشرعي. فإذا حدث وأن صادفوا رجلا مع زوجته، ولا يحمل معه وثيقة تثبت زواجهما، يعتبر ذلك كبيرة من الكبائر يجب تطبيق الحكم مباشرة دون ترك أي فرس للرجل في أن يدافع عن نفسه أوعن زوجته، فيعملوا على ربطه وينتهكون حرمته أمام أعينه، وهو جامد في مكانه، وقد أورد الكاتب حادثة حدثت في إحدى شوارع المدينة، فاستعمل لغة جريئة وصريحة بكل معنى الكلمة.

ركز الكاتب في فصل "حراس النوايا"، على أعمالهم الشيطانية التي أفقدت المواطن حريته وجعلته يعيش في خوف دائم. كما أرادوا أن يمسحوا تاريخ الثورة المجيدة، وأن هناك أبطال مروا من هذه البلاد. أرجعوا لها هويتها وكرامتها من أيدي الاستعمار، إذ قال الكاتب: "إنهم يقتلون الجياد ويبيعون البلاد، من غير المعقول كل هذا العنف، لابد أن يكون لنا تاريخ نسيته أقلام الوراقين"[1].

كما تناول فساد السلطة وتآمرها مع القادمين الجدد، وكيف غيروا في سياسة البلاد، ومشوا بها إلى قعر البئر بدلا من إحيائها والمضي بها قدما ومسايرة الحضارة والتقدم. عبر الكاتب عن هذا الفساد بلغة رمزية بعيدة كل البعد عن الوضوح، كما عمل على نقد السلطة وسياسته التي اتبعتها، فاعتبرا خاطئة ولا تبحث في مشاكل المواطن الفقير، ولا تدعم الفلاح البسيط، ولا تشجع الفنان الذي يعتبر مرآة عاكسة لوطنه في الحافل الدولية، إذ ركز

[1]– الرواية، ص184.

الراوي(البطل) على هذه الفئة الأخيرة لأنه كاتب وأستاذ جامعي للفن الكلاسيكي، كما أن حبيبته البطلة راقصة باليه ومدافعة قوية عن حبها الكبير للرقص والفن. وقد دفعت حياتها ثمنا من أجل إبقاء الرقص في الساحة الفنية الوطنية، ويعرض في المسارح الجهوية والدولية. لأنه حسب رأي "مريم" هو وجه من أوجه الهوية.

5)_ التهجين:

من أكثر الظواهر اللغوية ممارسة في الأعمال الروائية الحديثة، ظاهرة التهجين التي تتمثل في: "المزج بين لغتين اجتماعيتين في نطاق القول الواحد، إنه لقاء على ساحة هذا القول بين وعيين لغويين مختلفين تفصل بينها حقبة تاريخية أو تباين اجتماعي (أو كلاهما معا)"[1].

استعمل "واسيني الأعرج" هذه الميزة اللغوية الجديدة في روايته "سيدة المقام"، وفي روايات أخرى له، إذ "عملت على توليد وإخصاب اللغة الروائية" [2]. بطريقة تلهم وتجذب اهتمام القارئ، وتبعث فيه إحساس جديد وحبا للمطالعة والاكتشاف.

إذا كان صحيحا أن "اللغة معطى سابق على وجودنا داخل مجتمع ما، فإن المبدع يسعى دوما إلى تخصيص لغته الإبداعية ضمن اللغة السائدة والموروثة بصراع مستمر

[1]– ميخائيل باختين: الكلمة في الرواية، ص144.

[2]– محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص54.

معا"[1]. إن المبدع يعمل على إعادة صياغة اللغة الواقعية، فيحولها إلى لغة جديدة بفعل وحي الإبداع. وبفعل "التركيب الهجين الذي لا ينطوي على وعيين فرديين، صوتين، نبرتين، بقدر ما ينطوي على وعيين اجتماعيين، على عصرين" [2].

هذا ما قام به " واسيني الأعرج ". إذ عمل على المزج بين ثلاثة أنواع من اللغة، فكتب باللغة العربية الفصحى وهي الطاغية في عمله الروائي، كما أدخل فيها العامية في مواطن عدّة، خاصة عندما تتحدث مريم عن طفولتها، أو عندما تحاول إخراج طاقتها السلبية في وجه القادمين الجدد، أما اللغة الثالثة فهي تتمثل في اللغة الفرنسية واستعملها الكاتب عندما تتحدث أناطوليا فقط. منه "الهجنة الروائية ليست ثنائية الصوت والنبرة فحسب، بل هي مزدوجة اللسان، وهي لا تشتمل فقط على وعيين فرديين بل أيضا على وعيين اجتماعيين، لسانين وعلى حقبتين. ومن شأن التهجين القصدي إذا وظف بشكل جيد في الفن الروائي أن يضمن لهذا الأخير تعددا لغويا" [3].

من بين المقاطع المهجنة الواردة في روايتنا التي نحن بصدد دراستها، قول "واسيني الأعرج": "إنه تاريخك يا مريم! اليوم الذي ثقبت دماغك رصاصة. التاريخ الذي كان يفترض أن يكون فيه يوم موتك ولكنه لم يكن. قال لك الأطباء لا خيار لديك سوى أن تتعايش

[1]– حمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، ص54.

[2]–ميخائيل باختين: مختارات من أعمال ميخائيل باختين، تر: يوسف الحلاق، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، (ط–1)، 2008، ص171.

[3]–عبد المجيد الحسيب: حوارية الفن الروائي، مطبعة آنفو– برانت، فاس، 2007، ص37.

مع الرصاصة التي اخترقت دماغك. وتعايشت مخترقة كل طقوس الحذر. ذلك الزمن بدأ يبتعد بخطى حثيثة. لا تتذكرين من الألوان سوى الدم والصرخات الجافة، وشاحنة الشاب الذي اخترق حائط الثكنة قبل أن ينتهي عند تلك الفجوة" [1].

في هذا المثال ورد تركيب هجين في لغة الرواية، إذ يحمل في طياته صوتين و وعيان هما:

الأول: صوت، ولغة ووعي الرجل الصغير أو البطل، إذ خاطب مريم بأن ما حدث هو قدرها المكتوب بالحدوث لها دون سواها .

الثاني: لغة، ووعي الأطباء المعالجين "لمريم" إذ حذّروها من أي حركة عنيفة لكي تستطيع الحفاظ على حياتها.

تنتسب هذه البنية المهجنة إلى متكلم واحد، ولكن يشمل في طياته على وعيين مختلفان، فكل منهما وله منظوره الخاص به في الحياة، إلاّ أن الهجنة الروائية جمعتها معا، في لغة واحدة وصوت واحد.

عمل الكاتب في الرواية على المزج بين لغة المثقف ولغة غير مثقف، وبين السياسي وغير السياسي، ومزج بين لغة المؤمن والكافر، فأعطى لنا رواية بلغة مهجنة ومتعددة المستويات الكلامية.

[1]– الرواية، ص 10 و 11.

كما أضاف الكاتب كذلك: "سنة تمر، وبعدها سنة أخرى، منذ ذلك الحدث الرهيب، عندما شقّت رصاصة طائشة أو غير طائشة رأسي، تقول مريم، وهي تحاول أن تمسح أحزانها المفاجأة، لا شيء تغير سوى هذه المدينة الوحيدة التي تموت بين اللحظة واللحظة، وتتهاوى كل يوم مثل الورق اليابس" [1].

في هذا المثال مزج الكاتب بين صوتين هما: صوت "مريم" اليائسة من الحياة، بعد إصابتها بالرصاصة وفقدان حريتها في أبسط الأشياء حتى الحركة. الصوت الثاني يمثله "البطل" أو "الرجل الصغير" الذي يقف إلى جانب مريم ويحاول أن يواسيها في محنتها.

جاء التهجين في هذا المقطع منسجما إلى درجة لا يمكن اكتشافه بسهولة أو من القراءة العابرة، إذ كانت لغة "مريم" كئيبة جدا. وفقدت الأمل في نيل حياة سعيدة وهنيئة. لكن صوت "الرجل الصغير" جاء ليمسح من هموم "مريم" ويصبّرها في محنتها وأن كل شيء في الحياة جميل، سوى مصير المدينة التي تمشي بخطى سريعة إلى الهاوية.

تعمل "ظاهرة التهجين على إنارة لغة بلغة أخرى بشرط أن تكون اللغة الأخرى مختلفة عن الأولى وهذا يساهم في التنوع اللغوي" [2]. استطاع "واسيني" توظيف التهجين بطريقة جدّ محكمة فأنتج عملا أدبيا ذا نسيج محكم الضبط ودون أي خلل في لغته الروائية،

[1]- الرواية ص33.

[2]- أوريدة عبود: حوارية اللغة في روايات عبد المالك مرتاض، أطروحة دكتوراه، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 05-05-2013، ص75.

بل ساعده المزج اللغوي الذي قام به على تنوير العمل وتنويع الدلالات والألفاظ المستخدمة، فوظّف بذلك معجما لغويا متنوعا مع تحاشي تكرار الصيغ والمفردات .

من بين المقاطع المهجنة كذلك نجد قول السارد: " هذه النغمة ليست جديدة، بدأت منذ مدّة ليست بالقصيرة، عندما تعرض بين أناطوليا للسرقة وتقدّمت بشكوى للشرطة .قالوا لها: البلاد هكذا. غابة. دغل من أدغال إفريقيا، عندما نقبض عليهم سنتفاهم معهم. ثمّ أغلقوا الملفّ، وسألوها إذا كان قد سرق منها شيء مهم. قالت لا أملك سوى الاسطوانات، وقد كسروها. قالوا لها احمدي ربّك أنهم لم يحرقوا البيت. وانتهى كل شيء عند هذه الكلمات"[1].

وردت في هذا المثال ثلاث لغات وأصوات شكلت ملفوظ واحد هي كالتالي:

صوت ولغة السارد الذي يمثله في هذا المقطع الرجل الصغير.

صوت ولغة رجال الشرطة، الذين يعتبرون مجرد أناس يرتدون البدل الرسمية لا أكثر، لأنهم في الحقيقة لا يؤدون ولو نسبة قليلة من واجبهم.

وأخيرا صوت ولغة أناطوليا التي تعاني الخوف من "حراس النوايا"، لكن الشرطة تقف مكتوفة اليدين ولا تساعدها في شيء، بل ينصحونها بمغادرة البلاد .

[1]– الرواية، ص41.

ورد التهجين في هذا المثال بطريقة جد محكمة لأن الكاتب مزج بين ثلاث أصوات ولكل صوت وعيه الخاص به فأنتج لنا لغة مهجنة بطريقة فنية رائعة.

"الهجنة الروائية تتميز بتوحيد ملفوظين مختلفان اجتماعيا في ملفوظ واحد. كما تكون الهجنة الروائية نسقا من توحيد اللغات. منظما أدبيا" [1].

5)_ التعدد الصوتي:

"شكل الميراث النثري القديم المصدر الأصيل للرواية المتعددة اللغات، والذي يعتبر "دوستويفسكي"*[2] أحد روادها البارزين" [3]. تعددت تعريفات التعدد الصوتي، ومن بينها نجد التعريف القائل: بأنه مظهر يتجسد عن طريقه التعدد اللغوي والتنوع الكلامي والأسلوبي، داخل الخطاب الروائي. ذلك لأن الذي يتكلم هذه اللغات وينوع في أساليب الكلام، هو ذلك العدد الكبير من الأصوات المتباينة، من حيث الأفكار وأشكال الوعي والرؤى أثناء عملية التواصل اللغوي داخل مجتمع الرواية"[4].

استعان "واسيني الأعرج" بهذه الظاهرة اللغوية، ليبين مدى مساهمته في تأصيل الهوية الوطنية. وساعده على ذلك الاستعمال الرفيع والمحكم للغة، التي أتاحت له أن يبين

---

[1]– ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ص226.

*هو واحد من أكبر الكتاب الروس ومن أفضل الكتاب العالميين، وأعماله كان لها أثر عميق ودائم على أدب القرن العشرين. شخصياته دائما في أقصى حالات اليأس، وعلى حافة الهاوية. وروايته تحتوي فهما عميقا للنفس البشرية، كما تقدم تحليلا ثاقبا للحالة السياسية والاجتماعية والروحية.

[3]– عبد المجيد الحسيب: حوارية الفن الروائي، ص36.

[4]–سليمة عذاوري: الرواية والتاريخ، ص65 و66.

مدى الصراع الدائر بين الشخصيات في العمل الروائي. وكيف يستغل كل طرف من أطراف المواجهة اللغة لصالحه ويثبت هويته وقوته.

"فالتعدد الصوتي كما يستخدمه "باختين" "يعني إلغاء سيادة الذات المتحدثة، حيث تتباين أصوات كثيرة، وتنسجم فيما بينها لتعبر دون أن يكون أي منها هي المسيطرة" [1].

تعددت الأصوات وتباينت في رواية "سيدة المقام" بين الراوي البطل والبطلة، اللذان يواجهان العاصفة الحارة التي تضرب المدينة، وتقضي على الأخضر واليابس، على حساب التطور والتحضر. كما ساهم في ظهور تنوع في الآراء والأفكار، واختلاف أنماط العيش بين شخصيات الرواية، فنجد البطلين يحلمان بيوم ممطر يطفئ النيران التي تلهب المدينة، خاصة بعد مجيء " حراس النوايا "، مع تواطأ " بني كلبون " الذين مهدوا لهم الطريق. لكي ترجع البلاد إلى العصور الوسطى، فامتزج بذلك تناغم وتفاوت وتعدد لغوي ظاهر بين شخصيات الرواية. كما نجد "صوت الكاتب موجود داخل الرواية المتعددة الأصوات بالإضافة إلى أيديولوجيته" [2]. فبفعل "التباين في الأصوات تقدم لنا بانسجام نصا لا يطغى فيه أي صوت على حساب آخر" [3].

هذا الأمر يؤّكد لنا مدى انفتاح الكاتب على العالم الواقعي، باستعمال الموضوعية والذاتية في آن واحد. فتحقق بذلك الحوار بتوافر الانفتاح الذي سنح للشخصيات بتبادل

[1]– سليمة عذاوري: شعرية التناص في الرواية العربية، ص69 و 70.

[2]– المرجع نفسه، ص74.

[3]– المرجع نفسه، ص186.

الكلام. فنجد ذلك في قول الكاتب: " كانت الرياح قد تفاقمت، وحبات المطر أصبحت غليظة وباردة، أشعر بها وهي تنزل بانتظام وتتابع على رأسي. كنت أمشي. أمشي. المطر رائع في هذه البلاد ونادر. اركب، المطر عليك، مريم، أحب المشي في الطريق المطر شحيح في هذه المدينة البحرية. اركب وإلاّ انزل معك. لماذا لم أقل لها انزلي؟"[1].

هذا ليس إلاّ عينة من بين العينات، التي تعددت فيها الأصوات في الرواية وتباينت الأفكار وتشابكت المواقف. فنجد "ميخائيل باختين" يقر بأن أي "كلمة يتلفظ بها البطل حول نفسه هو بالذات وحول العالم، تكون هي الأخرى كاملة الأهمية تماما مثل كلمة المؤلف الاعتيادي"[2]. ويقصد من هذا القول بأن البطل الروائي يختلف عن الكاتب المبدع الذي جاء به إلى هذه الدنيا، في أفكاره وطريقة تسييره للحياة وموقف من الأحداث التي تدور حوله في العمل الروائي، ويخرج الكاتب من هذه الدائر ويترك المجال أمام شخصياته لتعبير عن نفسها .

"إن التعدد اللساني المدرج في الرواية (مهما تكن أشكال إدراجه) هو خطاب الآخرين داخل لغة الآخرين، وهو يفيد في تكسير التعبير عن نوايا الكاتب. وهذا الخطاب يقدم التفرد في أن يكون ثنائي الصوت" [3].

[1]- الرواية، ص106.

[2]- ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، تر:جميل نصيف التكريتي، دار توبقال، (ط-1)، بغداد، 1986، ص11.

[3]- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ص116 و167.

فينتج بذلك تعدد لغوي، لأن لكل شخصية ولها أسلوبها الخاص في التعبير عن آرائها. كما تتشكل بذلك أصوات كثيرة ومتنوعة تجعل القارئ يركز فيما يقرأ، لأن أي فقان لطرف الخيط في الرواية، يتعذر به فهم الأحداث واكتشاف الشخصية التي تتحدث، وفي نهاية الرواية يجد نفسه لم يفهم أي كلمة، فيجب تتبع المسار السردي بكل تمعن وانتباه، وكل هذا بسبب استعمال ظاهرة التعدد الصوتي التي تمنح التشويق والإرادة في متابع.

في ختام الفصل، نصل إلى أن هذه الاستراتيجيات اللغوية التي يستعين بها الكاتب لإظهار طريقة تفكيره تبين لنا مدى محاولاته في تشكيل هويته، وإيصالها إلى القارئ .

خـــــاتمـــــة

خاتمة:

في ختام بحثنا المتمثل في الهوية والصراع اللغوي في رواية "سيدة المقام" "لواسيني الأعرج "، نصل إلى جملة من الاستنتاجات.

إن الرواية الجزائرية جاءت لتلتقط يوميات والأحوال المزرية التي كان يعيشها الشعب الجزائري خلال فترة التسعينات، نجد رواية "سيدة المقام" كأنموذج على ذلك، فجسد الكاتب في نصه عنف السلطة السياسية السائدة وتشدد السلطة الدينية على الشعب. بلغة فنية راقية وبأساليب أدبية حديثة، تجذب انتباه القارئ.

فطغت على الرواية اللغة العامية، حيث عمد "واسيني" في ذلك على إيصال فكره الإيديولوجي الرافض الخضوع للسيطرة من طرف أي سلطة كانت، وعرف الكاتب بجرأته على الكتابة في مواضيع حساسة، ولا يبالي بالعواقب الوخيمة التي تنجر على ذلك.

كما دافع الكاتب عن مسألة مهمة تخص الشعب الجزائري عامة، وتخصه هو بالتحديد. وتتمثل في إثبات هويته وهوية شعبه، الذي يتقاتل أبناءه فيما بينهم وذلك من أجل الوصول إلى كرسي السلطة.

فحملت الرواية التي درسناها مشكلة الصراع القائم بين شخصيات الرواية على إثبات أو نفي الهوية، التي تعتبر نقطة أساسية لإثبات الوجود،وضمان حق البقاء في عالم يتخبط في صراع دائم، ويكون البقاء للأقوى، ولا يوجد مكان للضعيف.

ومن أجل وصول الكاتب إلى هدفه جسّد لنا ذلك،بصراع لغوي عنيف وجريء، تحدى به كل العوائق والصعوبات. فجاءت لغة روايته محمّلة بدلالات متعددة وكاشفة لمدى قوة الخلاف. فبيّن لنا تعدد لغوي ظاهر وطغيان واضح للغة الفئة المسيطرة على حساب لغة الفئة الضيفة و المهمشة في المجتمع الجزائري،والتي تمثل الفئة المثقفة. لأن المثقف في تلك

العشرية السوداء يعتبر خطر على السلطة والدين،بسبب وعيه الزائد مقارنة بالأفراد العاديين، فيجب على الكاتب أن يمشي في طريق السلطة الحاكمة وإلاّ يعتبر مجرم يجب وضع حدا له بإسكاته إلى الأبد أو نفيه إلى أقصى نقطة في العالم.

قـائمـة المـصادر والمراجع

القرآن الكريم: برواية ورش لقراءة نافع عن طريق أبي يعقوب الأزرق.

❖ **المصادر:**

1. أعرج واسيني: سيدة المقام ، (ط-1) ، منشورات الفضاء الحر ، الجزائر ، 2001.

❖ **المراجع:**

أ- الكتب العربية :

2. إبراهيم نبيلة: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، دار غريب، (د-ط)، مصر ،(د-ت).
3. برادة محمد: الرواية العربية ورهان التجديد ، دار الصدى ، (ط-1) ، دبي ، ماي 2011.
4. بن ذريل عدنان: اللغة و الأسلوب ، دار مجدلاوي، (ط-2)، 2006.
5. بن عبد الله بلقاسم: دراسات في الأدب و الثورة ، دار هومة ، (ط-1) ، 2001.
6. تزو عبد الوهاب: سوسيولوجية اللغة ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ،(ط-1)، 1996.
7. الحسيب عبد المجيد: حوارية الفن الروائي، مطبعة آنفو-برانت، فاس، 2007.
8. دريد يحيى الخواجة: إشكالية الواقع و التحولات الجديدة في الرواية العربية(دراسة)، اتحاد كتاب العرب، (د-ط)، دمشق، 2000.
9. راتب قاسم عاشور: أساليب تدريس اللغة العربية بين النظرية والتطبيق ، دار المسيرة ، (ط-1) ، عمان 2003.

10. ركيبي جودت: طرق تدريس اللغة العربية ، دار الوعي ،(ط-13) ، رويبة ، الجزائر ، 2012.

11. سعداني مصطفى: كتب الأدب والنقد في التناص الشعري ، مطبعة الجلال ، (د-ط) ، الإسكندرية ، 2005.

12. الشريف حبيلة: الرواية و العنف (دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة) ، عالم الكتب الحديث ، (ط-1) ، أربد ، بغداد ، 2010.

13. صيداوي رفيع: الكتابة وخطاب الذات(حواره) مع روائيات عربيات، المركز الثقافي في العربي، (ط-1)، دار البيضاء، المغرب، 2005.

14. عبد الغني مصطفى: قضايا الرواية العربية، دار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، (ط-1) ، 1999.

15. عبد الله العنزي سعاد: صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة ، دار الفراشة ، الكويت ،(ط-1)، 2010.

16. عذاوري سليمة: شعرية التناص في الرواية العربية (الرواية والتاريخ)، الطبعة الأولى، رؤية للنشر، القاهرة، 2012م.

17. غليون برهان: الوعي الذاتي ، المؤسسة العربية ، بيروتّ ، (ط-2) ، 1992.

18. غموري محمد: الرواية المغربية و التعبير الاجتماعي(دراسة سوسيو ثقافية)، إفريقيا الشرق، (د-ط)، 1991.

19. الفينش أحمد علي: أصول التربية، الدار العربية للكتاب ، (د-ط)، 1982.

20. لحمداني حميد: النقد الروائي و الإيديولوجي ، المركز الثقافي العربي ، (ط-1)، بيروت، 1990.

21. موريس ماجد: سيكولوجيا القهر و الإبداع ، دار الفرابي ، (ط-1)، بيروت ، 1999.

ب- الكتب المترجمة:

22. باختين ميخائيل: الخطاب الروائي، تر: محمد برادة ، دار الفكر ، (ط-1)، القاهرة ، 1987.

23. باختين ميخائيل: الكلمة في الرواية ، تر: يوسف خلاق ، منشورات وزارة الثقافة ، (ط-1) ، دمشق ، 1988.

24. باختين ميخائيل: شعرية دوستويفسكي ، تر: جميل نصيف التكريبي ، دار توبقال ،(ط-1) ، بغداد،1986.

25. باختين ميخائيل: مختارات من أعمال ميخائيل باختين، ترجمة يوسف الحلاق، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008م.

26. ترقيتان تودوروف: ميخائيل باختين(المبدأ الحواري) ، تر: فخري صالح ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، (ط-2) ، 1996.

27. ترقيتان تودوروف: فتح أمريكا مسألة أخرى ، تر: السباعي ، دار العالم الثالث ، (ط-2) ، القاهرة ، 2003.

28. جوزيف جون: اللغة و الهوية(قومية- إثنية- دينية)، تر: خراقي عبد النور ، علم المعرفة ، (د-ط) ، 2007.

29. دوفور فيليب: فكر اللغة الروائي، تر: هدى مقنص، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (ط-1)، 2011.

30. لارين جورج: الإديولوجيا و الهوية الثقافية(الحداثة و حضور العالم الثالث) ، تر: فريال حسن خليفة ، مكتبة مدبولى ، (ط-1) ، القاهرة ، 2002.

31. لوسركل جون جاك: عنف اللغة، ترجمة محمد بدوي، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2005م.

32. معلوف أمين: الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء والعولمة) ، تر: محسن نبيل ، ورد للطباعة ، (ط-1) دمشق ، سوريا ،1999.

ج- المذكرات:

33. بتقه سليم: الريف في الرواية الجزائرية دراسة تحليلية مقارنة ، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، 2010/2009.

34. عبود أوريدة: حوارية اللغة في روايات عبد المالك مرتاض ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ،2013/05/05.

35. عذاوري سليمة: الرواية والتاريخ (دراسة في العلاقات النصية رواية العلامة لبن سالم حميش أنموذجا) ، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي ، الجزائر العاصمة ، 2006/04/15.

36. مليكي إيمان: الحوار في الرواية الجزائرية ، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة العقيد الحاج لخضر ، باتنة ، 2013/2012.

د- المعاجم:

37. منجد أبجدي: دار المشرق بيروت ، (ط-7) ، الجزائر ، 1989.

الفـــــــــهرس

فـــهرس المـــحتويـــــــات

مقدمة.....1

مدخل: تحديد المصطلحات 5

الفصل الأول: الهوية و التفاعل الثقافي في لغة الرواية..... 20_48

المبحث الأول: محددات الانتماء الثقافي في الرواية.....21

1- الإيديولوجيا و علاقتها بالهوية 21

2-دور الانتماء الجغرافي في تحقيق الهوية.....25

3-الحب و مدى وقعه في تحقيق معنى الوجود 28

4-البعد الإنساني ومساهمته في تحديد الانتماء الثقافي للكاتب 31

المبحث الثاني: معالم الاستلاب و نفي الهوية 35

1-الضغوط الاقتصادية (صراع إيديولوجي 35

2-رقابة السلطة و أثرها السلبي على المواطن 38

3-سلبية الأفكار تقضي على المجتمع وتؤثر في الدين.....41

4-تحميل نفسية المواطن بالمادية القاتلة (تشيء) 44

الفصل الثاني: التعددية اللغوية ودلالات الصراع في الرواية..... 49-61

المبحث الأول: اللغة الآمرة 50

1- السلطة الدينية.....51

2- السلطة السياسية.....55

3-السلطة الاجتماعية 58

المبحث الثاني: لغة المهمشين 62

1- صراع المثقف مع السلطة 62

2- لغة التمرد عند الكاتب 66

3- المعارضة السياسية و عواقبها.....69

الفصل الثالث: تأصيل الهوية..... 73-95

آليات تشكيل الهوية في الرواية

1-استراتيجية الانفتاح(البعد التناصي) 74

2-عنف اللغة 79

3-نقد محرم 84

4- التهجين 87

5-التعدد الصوتي.....92

خاتمة..... 97-98

قائمة المصادر و المراجع 100